

المركز الديمقراطي العربي
بن ليدن - ألمانيا

مهاجرون بلا منأى

تأليف:
هايل علي المذابى

رواية من زمن الحرب

المركز الديمقراطي العربي
بن ليدن - ألمانيا



مهاجرون بلا منأى
رواية من زمن الحرب

هايل علي المذابى



2021

Democratic Arab Center
Berlin - Germany

MIGRANTS WITHOUT AWAY

By: Hayel Ali Almathabi



VR . 3383 - 6493. B



DEMOCRATIC ARABIC CENTER
Germany, Berlin 10315 Gensinger- Str. 112

<http://democraticac.de>

TEL: 0049-CODE

030-89005468/030-898999419/030-57348845

MOBILTELEFON: 0049174274278717

النـاشـر:

المركز الديمقراطي العربي
للدراستات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية
ألمانيا/برلين

Democratic Arabic Center
Berlin / Germany

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه
في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق خطي من الناشر.
جميع حقوق الطبع محفوظة: المركز الديمقراطي العربي برلين - ألمانيا

All rights reserved No part of this book may be reproduced.
Stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without
Prior permission in writing of the publisher

المركز الديمقراطي العربي
للدراستات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية ألمانيا/برلين

Tel: 0049-code Germany

030-54884375

030-91499898

030-86450098

البريد الإلكتروني

book@democraticac.de





المركز الديمقراطي العربي
لِلدراسات الاستراتيجية، الاقتصادية والسياسية

Democratic Arab Center
for Strategic, Political & Economic Studies

رئيس المركز الديمقراطي العربي: أ. عمار شرعان

اسم الكتاب: مهاجرون بلا منأى

إعداد: هايل علي المذابي

ضبط وتدقيق: د. عبد الله بونعاج

مدير النشر: د. أحمد بوهكو

رقم تسجيل الكتاب: VR . 3383 – 6493. B

الطبعة الأولى

آذار- مارس 2021 م

الآراء الواردة أدناه تعبر عن رأي الكاتب ولا تعكس بالضرورة وجهة نظر المركز الديمقراطي العربي



مهاجرون بلا منأى

MIGRANTS WITHOUT AWAY

رواية من زمن الحرب

هايل علي المذابي

Hayel Ali Almathabi

المحتويات

4	تسطير
5	إهداء
6	الوعد
13	في الباص
36	ظافر الخالد
45	أريانا كلود
57	الكبسولة
60	جمال الدين الغولي
67	سليم المسيبي
80	عبدالله السبئي

نسطير

في كل صباح تستيقظ فيه الغزلان وهي تعلم أن عليها الركنض
أسرع من الأسود وإلا فإنها سوف تقتل..
وفي كل صباح تستيقظ الأسود وهي تعلم أن عليها أن تركض
أسرع من أبطأ غزال وإلا فإنها سوف تموت جوعاً.
بغض النظر عما تكونه أنت أسدا أم غزالاً، من الأفضل عندما
تشرق الشمس أن تكون قد بدأت الجري.

إهداء

لربما قد أعيش حتى العقد التاسع من عمري لكنني أثق تماماً
أنني وحتى في ذلك العمر لن أبلغ من المعرفة حول السعادة
أكثر مما بلغته حتى الآن، وسأكتب حينها ما أفكر به الآن:
لقد عشت تسعين عاماً، لكن أجمل أيام عمري التي عشتها هي
تلك التسعة أشهر التي قضيتها في بطن امي.

أحنّ إلى بطن امي.

أحن إلى حنان حبلها السري وكرمها.

أحن إلى مشيمتي،

أحنّ إلى تلك الخلوة المقدسة،

بعيداً، عن قيل أهل الأرض وقالهم،

وتكالبهم، وتناحرهم، وشهواتهم، ونزواتهم.

أحنّ إلى ذلك البرزخ البنفسجي.

أحن إلى تلك الطمانينة الأبدية.

إلى أمي طبعاً،

مع كل المحبة والاحترام

الوعد

أن تعد أحدهم بشيء ففعل ذلك جميل ومقدس، فطالما كان مقياس حرية المرء يكمن في قدرته على الوعد، فكلمة حر في أصلها- على الأقل في لغات أخرى كالإنجليزية- قد اقترنت بمعنى صديق "Friend"، فالعبيد لم يكن لهم من الحرية ما يجعلهم قادرين على أن يعدوا، أو أن يشكلوا صداقات، والالتزام بالوعد فيما بين الأصدقاء، هي صفة خاصة بالأحرار فقط، لأنهم وحدهم القادرين على الوفاء بما يعدوا به.

أول وعد قطعتة كان لظافر الخالد، في نفس هذا اليوم تحديداً قبل عام، حيث كنتُ اجلس في نفس هذا المكان، منشغلاً بفكرة ان أحدهم قد قال لي، مستكثراً عليّ أن أشكو من جحيم هذه الحرب: " عجباً لمن يرى بهذا الوضوح ولا يجد لنفسه مخرجاً."

ثم تساءلت بحق، لقد مضت إلى الآن ثلاث سنوات، منذ بدء الحرب، والأبواب كلها موصدة، ولا طريق. فهل نكاء الإنسان وسلامة تفكيره، وسعة معرفته، لا تعني إلا قدرته على التحمل للعذاب؟

وأجبت على نفسي، وقد حفزتني فكرة الرؤية الواضحة، قائلاً: "من المحال ذلك، فالذكاء وامتلاك المعرفة لا يعنيان إلا قدرة المرء على اكتشاف مخرج الطوارئ من الأزمات والمحن..."

"ولكن هل هناك حقاً مخرج للطوارئ لهذا الجحيم؟" تساءلت مستغرباً.

وأجبت بحزن كبير: لا أعرف حقاً.

حين كنتُ مستغرقاً في التفكير في ذلك، كان أمامي شاشة جهاز الكمبيوتر، وهي نافذتي الوحيدة للتواصل مع العالم.

فتحت صفحتي على موقع التواصل الاجتماعي "الفيس بوك" وعلى الفور تذكرت صديقي ظافر الخالد.

قلت وأنا أفكر أن أبعث له برسالة: "كيف نفذ ظافر الخالد بجلده من كل هذا الخراب؟"، ثم بادرت على الفور وأرسلت له رسالةً أسأله عن أخباره وأحواله وتفاصيل قصته.

رغم تلك المأساة التي سمعتها في قصة ظافر الخالد إلا أنني تساهلت كثيراً في وعدي له، ولم يكن قرارى جاداً إلا بعد عودتي من رحلة استمرت لمدة عام كامل، رأيت فيها من التوحش والازدراء للإنسان ما يكفي أن يراه المرء لحياة كاملة، ووعدت نفسي أن اكتب قصص الكثيرين ممن قابلتهم، أولهم ظافر الخالد ثم آريانا كلود المخلصة التي حملت على عاتقها هم الإنسانية وسليم المسيبي وجمال الدين الغولي وعبدالله السبئي، وأنا أيضاً، لولا أن قصتي التي عشتها كانت من البؤس والألم بما هو أكثر من كل ذلك، ما يجعل الإفصاح عن تفاصيلها أكثر جريمةً مما يمكن ان أكون قد لقيته، ولذلك اكتفيت برمز "الكبسولة" في القصة التي كتبتها، وتحمل نفس الاسم.

حين وصلت مطار "سيئون" كان ثمة طابور طويل يحكي تفاصيل مأساة العالم بأكمله، قبل أن يخبرك بمأساة أوطان الحروب.

لقد خذلتهم حتى تلك الأرض يا الله. تلك الأرض التي بشر بها الشاعر كل مضطهد ومستضعف وخائف، متباهياً بفسحتها، مزهواً مغترأً برحابتها التي لا تدوم، أو أنه كان مخدوعاً فقال:

"وفي الأرض منأىً للكريم عن الأذى

وفيه لمن خاف القلى متعزلاً"

لكن عزائي الوحيد، حتى لا أظلم حكمة هذا الشاعر، أنه، رغم ذلك، كان يقصد أنه لم يجد الفسحة إلا في الصحاري والقفار وبين الحيوانات، ولم يقصد مطلقاً بما قال عوالم البشر، التي هرب منها.

ذلك الوطن الذي يواجه الحرب، ربما يجدر بأبنائه قبل أن يفكروا بالبحث عن منأى، والرحيل إلى أي مكان في هذا العالم التأمين على كرامتهم من الإهانات، حينها، ولو أنهم فعلوها وكنتيجة حتمية، ستعلن شركات التأمين إفلاسها.

لقد صدقت، لو هلة خادعة، أن الشكوى عجز شائع أكثر انتشاراً من البواسير، لكنني في قرارة نفسي حين كنتُ أسمع شكوى الآخرين أهيب كثيراً بعشقم للحياة، وفي قرارة نفسي أيضاً كنتُ أعرف أنني سأموت في اليوم الذي سأتوقف فيه عن الشكوى، من لا يشتكي ميت، إنها حقيقة، من لا يتألم من الضجيج و يركض هارباً بعيداً بعيداً، بعيداً عن كل شيء ميت.

لم أسمع أبداً عن مجنون اشتكى من رائحة العفن، الرائحة الكريهة ضجيج النفايات، والإنسان يهرب منها لأنه يكره الضجيج، الأشياء الأخرى التي من حولنا لها ضجيج أيضاً، قد لا تدركه حاسة السمع التي نعتقد خطأ أنها المسئولة عن تصنيف المزعج و اللا مزعج في حياتنا، كلا فالحواس جميعا تعرف الضجيج و نهرب منه لكننا لا نصنف ذلك الهروب بأنه هروب من الازعاج و الضجيج بذاك الوعي الذي تدركه حاسة السمع، إننا ننزعج لكننا لا نعي انزعاجنا ذاك، العين، مثلا، ترى مناظراً هي ضجيج مرئي ليس له صوت، مثل صورة دماء، صورة دمامل، و صورة القبح، و بالمثل حين تلمس اليد شيئاً مكروها تشعر بإزعاجه لها، فتهرب منه، و اللسان يشعر بضجيج الأطعمة و الأشربة فينفر منها، و يكره أي شيء يدعو إليها، و كذلك كل الحواس. حتى الجلد يشعر بضجيج الحشرات، فيهرب منها.

ما أجمل العطر، إنه ضجيج الورد الذي لا يزعج أحدا...

هناك مؤشرات كثيرة، هي المقاييس الفعلية، على وجود حب للحياة في الإنسان، وأما القلب ونبضه وتدفق الدماء في الشرايين، ذهاباً وإياباً، فتقول أن الإنسان آلة فقط، و الحقيقة أن أهم مؤشرات نبض الحياة في الإنسان هي الشهوة، فحين يتوقف اشتهاؤ الإنسان يعني أنه مات، حتى لو تدفق الدم في عروقه، و سمع لنبضاته صدى و دوي.

إن الشهوة تعني أن يشتكي الإنسان ويرفض كل شيء، وقياساً للشهوة العارمة في الإنسان، قد تقوم ثورة عظيمة. ولعل الضجيج مقياس عظيم على وجود الحياة في الإنسان.

هكذا تنتهي حياة الإنسان تماماً عندما يتوقف عن الشكوى، فبقدر ما تثبت عجزه، تثبت أيضاً شهوته، بالمقابل، في التغيير، والرغبة في السكينة، وإيجاد ما يحبه.

لقد أحببت شكوى كل من سمعتهم، ليس حبا فيها لذاتها، بل لأنها كانت مؤشرا على حبهم للحياة، ولأنهم يحبون الحياة بتلك الحماسة، فقد كانوا جديرين بأن أقطع لهم وعداً بأن أسرد قصصهم هنا وللعالم أجمع. من يشكو آلامه يستحق احترام البشر.

كانوا مهاجرين بلا منأى، كنتُ أتأمل حياتهم في بلاد لا ترحم، أو ليس لها سماء يمكن أن نجد لها بينهم على الأرض، كانوا يجتمعون إلى عدد يصل إلى خمسة عشر شاباً ليسكنوا في شقة واحدة حتى لا يتعسر على أحدهم مبلغ الإيجار الباهظ، فيكون نصيبه مما يدفعه من مال متوائماً مع القدر الزهيد الذي يتحصل عليه شهرياً من معارف وأقارب في بلدان أخرى، أو من أعمال يمتنونها في بلاد فقيرة كتلك، فلا يكاد ما يجنونه شهرياً فيه ما يستر العاري أو يغيث الجائع ولو لأسبوع واحد. وكنتُ أتأمل تلك المجموعات التي ينشئونها على تطبيقات الذكاء الاصطناعي، للإلمام بكل أخبار البلاد والعباد، فما من عرس يقام وفيه وليمة لأبناء الجالية، إلا ويعلم به الجميع من خلال هذه المجموعات فيهبون لتلبية الدعوة من أجل الحضور الذي يبتهج به العريس وأهله، ومن أجل الوليمة، ففيها توفير لثمن وجبة أو وجبتين أو ثلاث وجبات، وكنتُ أتأملهم في صيامهم حتى ساعة المغرب من كل يوم، تقرباً إلى الله واقتصاداً في مصروف اليوم، فوجبة واحدة على المغرب أقل ثمناً من ثلاث

وجبات في اليوم، لولا أنها غالباً كانت غير ممكنة فيكون هذا الصيام حلاً مناسباً يغطي العجز ويصون الكرامة، ويحفظ ماء الوجه.

لقد كانت أحلامهم مؤتثة على قدر رغباتهم، في شكل التغيير الذي يسعون ويطمحون إليه، ولا تتسع لأكثر من راكبٍ واحد فقط.

كان بعضهم يحلم بالسفر إلى أوروبا، لعله يجد لجوءاً يكفيه تبعات العيش والإقامة، حتى ولو كان يعرف أن طريقه محفوف بالخطر الكبير، ومنهم من فعلها وذهب لكنه لم يكن يملك من الحظ ما يكفي لئلا يموت غرقاً في عرض المحيط. ومنهم من ألقى القبض عليه لأن دخوله إليها كان بطريقة غير شرعية، فأعيد من حيث جاء، ومنهم من طرق أبواب السفارات للحصول على فيزا لولا أنها اشترطت عليه تعلم لغتها فعاد لدراسة اللغة وانتظر عاماً وأنفق ما أنفق واستدان ما استدان حتى أكمل كورسا كاملاً في اللغة، وحين طرق أبواب السفارة مرة أخرى متباهياً بإجادة اللغة وامتلاكها لم ينظر في طلبه، بذريعة أنه لا يملك رصيذاً بنكياً كافياً يسمح بمنحه الفيزا بناءً عليه.

وعدا أولئك جميعاً ثمة من طرق أبواب الأمم المتحدة طلباً في اللجوء، فمنحته كرتاً أصفراً للإقامة في البلد التي قدم طلب اللجوء منها، على أمل أن يتم النظر في طلبه مستقبلاً، ومكتفية بإعفائه من الإقامة وشروطها ورسومها، وتأميناً صحياً يحصل عليه في أوقات المرض من مرافق محددة، يؤمنها له للحصول عليها ذلك الكرت الأصفر، بالإضافة إلى مبلغ إعاشة زهيد لا يتجاوز خمسين دولاراً في كل شهر، وضنت عليه بكرت اللجوء

الأخضر، احترازاً من كونه يماني، بل ولقد تم توظيف أربع أسر من جملة ست مائة أسرة طيلة ثلاثة أعوام، كانت تنتظر أن تقرر الأمم المتحدة مصيرها بمنحها الكرت الأخضر للتوطين لولا أنها لم تفعل.

في الباص

صعدت الباص الذي كان ينتظر على بوابة صالة المغادرة، كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحاً، وكنتُ أنا وستة آخرين قد انطلقنا لنعود معا في رحلة تستغرق يوماً كاملاً إلى صنعاء. وعلى متن ذلك الباص قطعت على نفسي وعد الحرب بعد أن سمعت حكايات هي أغرب إلى الخيال الذي لا يخطر على قلب إنسان.

كنا خمسة شباب يمنيين ممن جنت عليهم الحرب، أما السادس فرجلٌ كبيرٌ من فلسطين، يعمل أميناً مالياً لمنظمة التحرير الفلسطينية.

لقد كان عائداً للتو من السودان في رحلة عمل كما أخبرنا وفي أول اتصال له وبعد ان سمعت ما دار بينه وبين المتصل من كلام شعرت بفداحة ما وصلنا إليه إذ كان الحوار كله بلغة الملايين والشيكات والبنوك وحين انتهى الإتصال التفت فوجدني أنظر إليه فقال هذا ابني وقد حان موعد صرف الرواتب لموظفي المنظمة...

ابتسمت ثم تذكرت الفلسطيني الذي قابلته قبل ان أغادر القاهرة بيوم واحد وأخبرني بأنه يدير مؤسسة في رام الله واطاف متباهيا بأن ميزانيتها تفوق ميزانية أكبر الوزارات الفلسطينية، ولقد كان كريماً جداً وهو يعرض عليّ العمل مراسلاً لهذه

المؤسسة من اليمن، مقابل مبلغ مالي كبير سيتم تحويله لي من فلسطين شهرياً، وبالعملة الصعبة.

ورغم كل هذا إلا أنني لم أسمح لنفسي بالانشغال في التفكير في أسباب كل هذا الضياع والتشرد والحرمان والموت والخراب الذي يعيشه اليمنيون لأكثر من خمس دقائق..

تخلّيت عن ذلك الانغماس في التفكير وقررت المواجهة واستدركت أولاً بسؤال وجهته له:

ما هو اسمك؟

قال: عبدالله.. ثم أضاف عبدالله حسين هاشم.. ثم قال: أنا من آل البيت..

كان جوابه كمن صب الزيت على النار وعلى الفور وكمن اكتشف شيئاً هاماً قلت متهكماً: آها الآن فهمت..

قال بحنق واضح: ماذا فهمت؟!

قلت: لا شيء فقط فهمت لماذا كل هذا التمييز الذي يتجاوز حتى أبناء المجتمع الأصليين...

قال: أنتم متعاملون دائماً ولا شيء سيعجبكم!

أجبت عليه بعد أن أخذت نفساً عميقاً وحالي كمن سيغوص في بركة ماء لفترة طويلة:

لست متحاملاً على الهاشميين وأحبهم كثيراً ومنهم الصديق والقريب والحبيب والاخ والأخت والزميل والزميلة، إنما القصد هو المساواة فقط في الحقوق والمواطنة... هذا الحال يعاني منه

تقريباً كل المجتمعات شرقاً وغرباً، حتى لدى المسيحيين هناك من يقولون أنهم من نسل القديس يوحنا أو نسل الأسباط ويقولون أن الله أعطاهم قدسية خاصة إلى اليوم، وحتى اليهود يزعمون الأفضلية بانتسابهم للنبي داوود ويزعمون أحقيتهم بحكم العالم وأن جيناتهم مختلفة، والنازيين بألمانيا كانوا يحملون نفس العقلية، حتى في الصين عائلة تشانغ إلى اليوم تدعي أنها عائلة مقدسة، وأيضاً بالهند يقدسون أبناء بوذا حتى اليوم ويرفعونهم فوق منزلة البشر العاديين، وذرية زرادشت إلى اليوم مقدسة، إذن فكل العالم يحتاج إصلاح ليس فقط نحن.. العقلية البشرية في تحليلها السوسولوجي تميل لإعطاء نفسها الأفضلية فنحن مثلاً نعتقد أننا كائنات عليا أرفع من الحيوانات بالكوكب وأرفع من كل المخلوقات بالعالم والنبات وكل شيء بينما الحقيقة أن كل المخلوقات على هذا الكوكب هي مخلوقات تكاملية كلها تعيش ضمن نظام بيئي تكاملي ومن هذا المنطلق نحترم الحيوان ونحترم النبات ونحترم كل شيء حولنا ونساوي بين كل شيء في الحقوق والواجبات سواء كان حيوان أو نبات أو إنسان مثلاً..

صمت قليلاً ثم سألته: هل تعرف النظام الذي يعمل به هذا الكون ويسير نظامه؟

صمت وكان الحنق بادٍ على ملامحه فأدركت أن عليّ أن أجيب بدون أن يقول أو يسأل:

الأنظمة نوعان أنظمة قائمة بذاتها وأنظمة تتكامل مع غيرها والنظام الكوني ينتمي إلى النوع الثاني وقد خاضت البشرية في تجربتها الابتكارية منذ ظهور الكهرباء تجربة الاختراعات

القائمة على التماثلية ولها نظام قائم بذاته ثم في الوقت الراهن ومنذ بدايات عصر المعرفة بدأت المنتجات الصناعية والاختراعات تأخذ منحى الأنظمة التي تتكامل مع غيرها كأنظمة البيوت الذكية المرتبطة بشبكات انترنت الأشياء وغيرها كثير من الصناعات أي أن العصر بدأ يفهم طبيعة الكون ويتصرف في سياقاتها ويتمشى مع انظمتها وهو ما يوجب على الانسان اجتماعيا إدراك ذلك فالنظام البشري يفرض التكامل مع الآخر أي أن الجميع سواسية لهم حقوق وعليهم واجبات وفي سياق أعم يتكامل النظام البشري مع النظام الحيواني والنباتي وهذه الممالك الثلاث تتكامل مع البيئة والمناخ ومعطيات النظام الكوني.

قال الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام في فتح مكة: "يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء كلكم لآدم وآدم من تراب، يا معشر قريش ما تظنون أنني فاعل بكم قالوا أخ كريم وابن أخ كريم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لي ولكم".

صمت ثم وجهت سؤالا لجميع من كان على متن الباص:

هل تعرفون ما هي المشكلة يا سادة؟

وأجبت على نفسي:

المشكلة كانت دائما أن هناك من لا يزال يظن أن حيواناته المنوية مختلفة عن باقي البشر وأنه من سلالة نبيلة ومقدسة وطاهرة ليست كباقي سلالات البشرية.

العالم الآن يقوم ببناء دول متطورة جداً تلبي حاجات المجتمع باختلاف انواعهم واعراقهم وأصولهم وقد سعدت الحضارات للفضاء بأقمارها الصناعية وبأنظمة اتصالاتها المتقدمة، وصارت البشرية تبحث عن موارد بديلة، وعقول البشر تغيرت كثيراً عن ذي قبل فالزمن أصبح يقدر العلم وولى زمن تقديس البشر والسلالات.

يجب علينا وعلى مجتمعاتنا التخلي عن التفكير العشائري وعن النعرات والأفكار البدوية والجاهلية، وسواء كنت من نسل أحد الأنبياء أو من نسل أحد المشاهير فإن ذلك لا يعطيك أي أفضلية على المواطن من أصل أفريقي أو من أي أصل آخر ولم يفضلك الله عنه بأي شيء مادي أو روعي أو ديني، فأنت مواطن فقط ولا دخل لنا بأجدادك ولا بأصولك وموروثك الثقافي والأسري وصلاتكم بالسماء عبر المدى الطويل. القانون لا يفرق بين أحد. الفاشلون في صناعة الحضارة هم العظاميون من يخلقون لأنفسهم تميزاً ونجاحاً عن طريق السماء ويستدعون آبائهم وأجدادهم في العصر السحيق لتغطية نقصهم وفشلهم في المنافسة بعصر المعلوماتية والتطور الحضاري والتكنولوجي المتقدم، أما العصاميون فهم بنائوا الحضارات الإنسانية على مر التاريخ، حتى الأنبياء لم يكن لهم أوطان.

ساد الصمت على الجميع وبدى وكأن أحداً لم يعد راغباً في سماع المزيد فالجميع يعرفون حتى هذا صديقنا عبدالله الهاشمي.

التفت بعد وقت قصير إلى أولئك الشباب الذين سعدوا على متن الباص ونسافر معاً لأصغي جيداً، من ثم، إلى حكاياتهم ونتيجة لما تأثرت به جداً من تلك الحكايات التي سمعتها كان لا بد أن أقطع على نفسي وعدا بكتاباتنا.

لقد أمضيت عاما كاملاً هناك، وكان أمامي طريقين، الأول أن اخترع الكبسولة، وقصة الكبسولة سأرويها لاحقاً، وربما كنتُ سأفعلها، لو كنتُ في ظروف أفضل، ولقد لاحظت شيئاً هاماً شدني للتأمل فيه، فحين أمعنت النظر في تلك الفكرة، فكرة الكبسولة، وجدت أن الناس يكرهون القمم، فحيث كان مقرراً أن أقضي تسعة أشهر في قمة البرج لاحظت تلك الكراهية بوضوح، لكن لماذا؟

حين بعثت بقصة الكبسولة إلى آريانا كلود طرحت عليّ السؤال ذاته، "لماذا القمة بالذات؟ ولماذا يكره الناس القمم؟" وبالفعل حررت لها رسالةً أخبرها بفلسفتي حول القمة، وقلت فيها:

"لقد تأملت ملياً في ذلك، واتضح لي أن الناس غالباً، وبجدية كبيرة، بالفعل لا يحبون القمم، والسبب أن للخوف طبيعة مختلفة، هذه الطبيعة يشترك معها العجز أيضاً، فسيكولوجية غريزة البقاء لها امتدادات منها الخوف، والعجز، والجريمة، وكل هذه تفرض على المرء نمطاً خاصاً، في طريقة حياته، بدءاً من أعلى مؤسسة في المجتمع، بما تحتويه من أفراد، وحتى أدنى طبقات المجتمع، فالرئيس وزمرته يفكرون بنفس طريقة الإرهابي والمجرم والقاتل والبغي، والفقير يتصرف، نتيجة قلة حيلته وفقره مجبراً، بنفس الطريقة، هؤلاء جميعاً يفكرون بطريقة واحدة تفرض عليهم اختيار العوالم الدنيا حتى في سكن العيش.

كيف؟

الرئيس وزمرته من مسئولين وغيرهم تفرض عليهم سيكولوجية الخوف اختيار الطبقات السفلى للحياة والإقامة، وهذا نتيجة طبيعية حين يكون الحاكم فاسداً وظالماً؛ فتطور

السلاح وأدوات القنص يفرض عليه الخوف من القمم والسكن فيها. بل إن هذا الخوف يفرض على هذه الطبقة اختيار مكان السكن، وحتى تفاصيل الأبنية المحيطة به، والتي يجب ألا تكون مرتفعة إطلاقاً على مكان سكنهم، بل تكون في مستوى موازٍ لسكن هذه الطبقات على الأقل.

الإرهابي والمجرم ودور البغاء والقاتل المطلوب في القصاص والثأر تفرض عليهم سيكولوجية الخوف نفس ما يفرض على الطبقات العليا في المجتمع، مع احتياطات أكثر احترازا، مثلا، نجد هؤلاء مع تفضيلهم واختيارهم للطبقات الدنيا للحياة والسكن، نجدهم أيضاً يستخدمون نمطا يمكن ان يكون متشابهها إلى حد كبير في طبيعة وتفاصيل سكنهم، فالأقفال التي يضعونها على الأبواب إبهاما بأن السكن خاليا، ولا يوجد به أحد، ولا يعرف بذلك سوى أشخاص محددون، هم عملاء وزبائن بالنسبة للبغي، وهم مساعدي الإرهابي وجماعته، وهم أصدقاء المجرم والقاتل وخادموه، عدا ذلك نجد انهم يستخدمون لونا معيناً لتلك الأبواب يختارونه بعناية حين يقومون بعملية طلاء الأبواب.

بالنسبة للأذكياء والشجعان والعاقلون في أعمالهم وحياتهم نجدهم نتيجة لذلك يفضلون المقدمة والأعالي، دائماً، والحديث لا يشمل ما قد تفرضه الحياة أحياناً من اختلافات، وحتى في عالم الدراسة وقاعات المحاضرات نجد أن الطلاب الأذكياء المجتهدين والمخلصين يفضلون المقدمة، وأما الأغبياء فنجدهم يفضلون الصفوف الأخيرة، وهذه المقدمة والصفوف الأخيرة يعادلها القمم والعوالم السفلية، بل كأنها تصبح امتدادا لما سوف يعيشونه لاحقاً من حياة، حيث يصبح الأذكياء المجتهدون في

القمم، والأغبياء المشاغبون في العوالم السفلية، حتى في عوالم الوظائف، باستثناء المجتمعات الفاسدة التي تنتهج مؤسساتها سلوك الفساد، فتجعل المتفوقين في أسفل الهرم الوظيفي والأغبياء نتيجة وجود من يدعمهم في القمم من هذا الهرم.

ولا يختلف هذا المنطق في حالات الحروب، فهذه الأخيرة، نتيجةً للخوف، تفرض على المواطنين الخائفين اختيار العوالم السفلية للإقامة، كالملاجئ، وبدرومات المنازل.

وحول منطق الذكاء، والشجاعة وسيكولوجيتهما التي تفرض اختيار القمم والأعالي كسلوك، دائماً، يقول الشاب "ومن يتهيب صعود الجبال يعيش أبد الدهر بين الحفر".

إن القاسم المشترك الأعظم الذي تشترك فيه جميع الكائنات هو "دافع البقاء"، وكل فعل لدى أي كائن يفعله بدافع "البقاء" لكن ما يحدث من تفاوت سببه هو الرغبة، فقد نرى نمراً جسوراً يركض خلف غزال، وقد نرى الغزال تسبق النمر، فهل هذا يعني أن الغزال أقوى من النمر؟

إن كلاهما يتصرف بدافع البقاء، لكن "الرغبة" لدى الغزال في البقاء، أكبر من رغبة النمر، الذي يركض أيضاً بدافع البقاء ورغبة في الحصول على طعامه، لكن رغبة الغزال هي ما تجعله يركض بسرعة أكبر من النمر الأقوى لتتنقذ نفسها من الموت.

وهذه السرعة لدى الغزال تماثل الطبقة السفلى التي يختار الخائفون الحياة فيها دائماً.

ولا يختلف الأمر حتى في أساليب التعاملات الحياتية، فنجد ان ذوي العوالم السفلية، بتعدد أشكالهم، يستخدمون الأساليب الرخيصة والأدنى إلى أبعد أحد، وذوي العوالم العليا، بتعدد أشكالهم، يستخدمون أساليب لا تنم إلا عن رقي فقط.

وفي مؤسسات العلم، نجد ان هذه السيكولوجية، تفرض، بعيداً عن الغش والخداع، نمطاً واضحاً حتى على طالب العلم، فنجد ان التفوق وهو يماثل القمم، يفرض على الطالب الذكي، أسلوباً راقياً في الطرح والمعالجة، ومواضيع تماثل القمة والرقي والتميز دائماً، بخلاف الفاشلين والأغبياء، حيث يكون الأسلوب التافه في الطرح والمعالجة هو السلوك الذي يعرفون به، وكذلك المواضيع التي يختارونها في موادهم المطروحة للمناقشات والأبحاث التي يقدمونها.

وفي سياقات كبرى نجد أن رأس الحكومة المتفوق يستطيع ان ينقل بلاده في فترة زمنية قليلة إلى حيث الأعلى والقمم، في حين أن الفاسد من هذه الطبقة لا يستخدم إلا حلاً تافهاً لمعالجة مشاكل البلاد، فإن كانت بلاده في طبقات منحطة فإنه يجعلها في فترات زمنية طويلة في طبقات أشد انحطاطاً حتى ولو ظهر للآخرين غير ذلك، لأن الانحطاط عادة لا يظهر على السطح، بل ضمناً في تفاصيل الداخل، تماماً كالمرأة القبيحة حين يكون الماكياج حلاً لما تعانيه من قبح.

إن سيكولوجية الخوف تفرض ما هو أكثر من ذلك، فنجد ان من يختار العوالم السفلية، حتى فيما يفكر به، تجعله يختار الماضي لإنقاذه من خوفه وفشله وعجزه عن التفكير، فيكون الماضي مساوياً للعوالم الدنيا، خوفاً من الصعوبة التي يقتضيها

التفكير المركز، الذي تقوم عليه الحضارات، وحباً في الراحة الذهنية، أما الأذكىاء والمتفوقون فيختارون المستقبل دائماً، ويعادل هنا القمم والأعالي، وهؤلاء فقط من تقوم بهم الحضارات الإنسانية وتستمر.

إن سيكولوجية الخوف تفرض على المجتمعات البقاء في طبقات التقليد والإتباع الدائم، لأن ما يفرضه المستقبل والقمم عليها أصعب وأشق، لكن النتائج لا تقول إلا ان الإتباع والتقليد، هو الباهظ دائماً في نتائجه، لأن المجتمعات في نهاية المطاف، لن تجد لها هوية سوى هوية الماضي والعوالم السفلية. فتبدو مغتربة تماماً عن ذاتها.

إن حال العالم في معادلة القمم والعوالم السفلية والتفكير في المستقبل والحاضر والماضي، سيكون حال بناية عظيمة، ومن يفكرون في المستقبل يسكنون القمة فيها، ومن يفكرون في الحاضر يسكنون في الطبقات الوسطى، ومن يفكرون في الماضي يعيشون في قبو هذه البناية.

والناس في هذا ينتهجون سلوك القطيع فلا يفكرون إلا فيما هو أدنى دوماً، لقد كانوا منذ بدء الخليقة يفكرون بنفس هذه الطريقة، لم تستطع المجتمعات في أي عصر ان تخرج عن سياقات "البرهان الاجتماعي" و "سلوك القطيع"!

هكذا: بينما نرى هذا الشخص يتناول وجبته في مطعم ما يمر رجل آخر مع عائلته من نفس الشارع فيرون ذلك المطعم وإلى جانبه مطعم آخر لكنهم لا يحتاروا في اختيار أحدهما فالرجل الذي يتناول وجبته في المطعم ذاك يظهر لهذه العائلة من خلف الزجاج فتتشجع العائلة في دخول المطعم ذاته الذي يأكل فيه

الرجل ثم يأتي آخرون و آخرون وبنفس الطريقة يزدهر هذا المطعم دونما سبب و يصيب المطعم الآخر والأفخر منه ربما الكساد دونما عيب فيه سوى أن الرجل الأول اختار المطعم الذي بجواره لأنه لا يملك الكثير من المال.

ويسمي علماء النفس هذا النوع من السلوكيات أو طرق اكتساب المعرفة بسلوك القطيع Behavior of herd وأكثر الناس في كافة القطاعات لا يستطيع فكاكا عن سياقات قالب هذا السلوك، "سلوك القطيع" مثلما يحدث في حالات الخوف و الطوارئ حين نتخيل أن هناك مبنى عملاقا يحترق و هناك مخرجان آمنان في المبنى، فيكون أول شخص يتجه نحو أحد المخارج هو الذي يقرر لكل الهاربين مخرج هروبهم حتى لو لم يتسع للجميع، إلا أنهم يستمرون في التدافع و التدفق والتحاشر على باب ذلك المخرج. في حين أن المخرج الآخر آمن أيضاً لكن أحدا لا يلقي له بالاً، لأنه مسكونٌ بغريزة القطيع الذي يهرب من الحريق.

وهكذا فإن معظم الناس يفضلون البقاء في الاسفل أسوة بمن سبقوهم أو بمن صادقتهم عيونهم لأول وهلة ووعي لهم على هذه الحياة فقررروا البقاء هناك إلى ما شاء الله ودونما سبب."

وبعد هذا الاسهاب والاتساع في القول حول فكرة القمة، كنتُ أعرف أن آريانا كلود ستدلي بدلوها تعليقا على رسالتي فردت بالفعل برسالة تقول:

"نعم إن قسوة التفكير ومشقته التي عانت منها الذهنية البشرية، منذ بدء الخليقة، وحتى هذه اللحظة قد فرضت على الإنسان الاتباع والتقليد ليس فقط لمن سبقوهم من البشر فحسب بل وممن

تعلم منهم السابقون "الحيوانات" وفي كل شيء، لقد ولد الإنسان ليحب الراحة ويعيش في السكون.

إن التفكير في أسوأ حالاته ليس سوى تعبير عن القدرة على إقامة العلاقة بين المدركات أو أنها عملية إدراك للمختلف والمتشابه، وتعتبر هذه المرحلة هي مرحلة السكون تليها مرحلة أخرى هي مرحلة الحركة أو "المعرفة" وهي بطبيعتها تتخذ مسارين الأول هو تقليد تلك الحركة أي تقليد ما يدركه الإنسان من متشابهات ومختلفات، والثانية هي إنتاج معرفة أي خلقها. الأولى تفترض الاتباع، والثانية تفترض الإبداع. الأولى تقتضي حب الراحة الذهنية وتوهم بلوغ المعرفة الكاملة، والثانية تفترض الانتقال إلى حالة عظمى من الراحة لكنها لن تبلغها إلا عبر قناة من المشقة والجهد.

حين أدرك الإنسان شيئاً من المعرفة في سلوك الحيوانات التي رافقت مسيرته من النشأة الأولى إذ لم يجد بُدّاً من اتباعها وتقليدها لينتقل من حالة السكون إلى حالة أخرى هي مزيج بين المعرفة والسكون، وقد ظلت الأجيال تتوارث هذه الحالة من المعرفة والسكون بل إن ما تعيشه البشرية اليوم ليس سوى تعبير عن هذه السكون المعرفي.

لقد فشل الإنسان منذ البدء في تصميم عالمه وإعادة الصياغة لدنياه، فقامت الحيوانات، من خلال عملية التقليد، بتصميم عالمه ودنياه التي يحيا فيها وفقاً لسلوكها ودوافع أفعالها.

لقد أرهقتني الفكرة منذ وقت طويل حتى أنني اتخيل ما هو وضع البشرية الآن لو لم تكن الحيوانات التي اتبعها الإنسان

وقلدها في سلوكها، إلى أي مدى كان يمكن أن تكون الحياة أكثر إشراقاً وأكثر عدالة؟

لقد فرضت عملية التقليد والتخلف عن التفكير أن يكون المجتمع حالة امتداد لطبيعة عالم الحيوانات وقوانينها، فالصراع مستمر منذ بدء الخليقة بين توجهين الأول هو الخير والآخر هو الشر لولا ان هذا الصراع كان ليكون غير موجود لو لم تكن شريعة الغابة هي الشريعة التي احتكم لتقليدها الإنسان بكل ما فيها من صراعات، حتى أن هذه الغرائز لم تكن لتكن موجودة أصلاً وهي تحت الإنسان دائماً ليعيش حالة الصراع وتوجهه نحو فعل الحياة بكل ما تحمله من تناقضات وشهوات ونزوات، لكن تلك الغابة وتقليدها هي من فرض عليه ذلك فتصرفه ليس أكثر من تجسيد لمنطق الحيوان وسلوكه لكن في هيئة بشرية.

حتى أن الأديان لم توجد إلا بسبب ما تفرضه عملية التقليد تلك من تبعات، وتخفف من وطأتها، فالأديان في غاياتها لم تكن أكثر من تعبير واضح عن مكافحة لتلك الطبائع وشرورها، والتي قلدها الإنسان واكتسبها، لتتنقه من المشقة في التفكير والابتكار، من عوالم الحيوانات.

ولعل أدوات الصرف الصحي ليست سوى تعبير عن أرقى ابتكار اخترعه هذا الإنسان ليكون مختلفاً به عما يحدث في عوالم الحيوانات، أما الحديث عن القنابل الذرية والهيدروجينية والسلاح النووي كأعظم ما توصلت إليه البشرية فليس سوى تعبير عميق وواضح جداً عن منطق الغابة ذاته الذي يفترض الاقتتال الدائم بين الحيوانات وسيطرة الأقوى على الأضعف.

إن كان لابد ان يكون ثمة اختلاف يتميز به الإنسان فإن الاختلاف هذا يجب أن يتجاوز كل مدرك وملموس سواء في اللون أو العرق أو الجنس، أي أن اختلافه هو في قدرته على التفكير بعيداً عن منطق الحيوانات وسلوك القطيع.

لقد فرضت تبعات التقليد على الإنسان ألا يجد السلام أبداً لا في واقعه ولا في دواخله. إنه رهين الغابة وممارساتها ورغابتها وتشريعاتها وأينما ولى وجهه فلن يجد سوى ذلك الصراع على الدوام.

من يتأمل هذه الأنماط البدئية التي ظلت الذرية البشرية أو ما يمكن تسميته بالأنماذج العليا و اللامتغيرات البنوية سيجد أنها تفترض وجود صراع أزلي كما وتفترض هذه الكاتلوجات الاجتماعية للشعوب والتي هي امتداد لقيم الأنماط البدئية تفترض على الإنسان أن يعيش هذا الصراع حتى ولو لم يرغب فيه. أي ان هذا الكاتلوج يحتوي على خطة هي مجموعة من القيم والعادات والتقليد بما في ذلك التقليد الديني وتفترض أن يعيشها الإنسان ويطوع حياته قسراً على ان تكون وفقاً لطبيعة هذه الكاتلوجات، في حين انه يستطيع أن يفكر خارج هذا السياق المطلق في منطقته ويفترض نهجاً أكثر سلاماً مما تفرضه طبيعة هذه الكاتلوجات من تبعات ليست في أفضل حالاتها سوى تعبير عن منطق صراع الغابة الأزلي.

وعلقت في ردي على تعليقها أيضاً وقلت:

"إن التفكير خارج سياق هذه المنظومة التي تفرضها الأنماط البدئية لا يعني إنحلال القيم التي تحملها ولكنه يفرض أن يكون للإنسان كاتلوجه الإنساني بعيداً عن أي فرضيات لوجود صراع

وأنة مجبر على أن يعيشه فتستمر حياته حتى النهاية لا تعبر إلا عن تفاصيل هذا الصراع وداخل دائرة منظومته."

فردت آريانا كلود بالقول:

"إن هذه الطريقة التي تعتمد على التفكير تفرض على الإنسان أن يكون حراً دائماً، أي أن له حق الاختيار وحرية. فإن كان لا يريد سوى الاتباع والتقليد لنواميس لتلك الكاتلوجات فإنه يعلن بصراحة أنه يفضل العبودية والإتباع وأنه لا يريد أن يكون حراً لأن حرته حينها ستفرض عليه ولوج قناة من المشقة والصعوبات والجهد لينتقل من ثم إلى حالة تضمن له السلام والراحة وعدم وجود أي صراع هو مجبر ان يعيشه".

وكان الطريق الثاني لي ان أعود إلى الجحيم الذي هربت منه إلى جحيم لم يختلف كثيراً عنه، وربما أن هذا بسبب الوعي الذي يمتاز به أبناء العاهرات في هذا العالم دوناً عن بقية البشر، إذ أن الإنسان كما يفترض به يتميز بالنسيان لكل شيء حتى في تعاملاته مع الإساءات، لكن أبناء العاهرات، وهم ممن لا ينطبق عليهم وصف إنسان أو بشر أو حتى حيوانات، فقط هم أبناء عاهرات، لأن وعيهم الملازم لهم كعضو من أعضاء جسدك لن يزول إلا ببتره، يفرض هذا الوعي عدم النسيان ومن ثم فذلك يوجب عليهم إلحاق الأذى بالآخرين على الدوام، وتسبب الآلام لهم بكل الأشكال التي قد يتخيلها العقل، أو حتى لا يتخيلها، وهؤلاء عادةً هم من يتسيدون ويسيطرون سواء في العوالم السفلى أو في السياقات الطليعية في مختلف المجالات والوعي الملازم لهم على الدوام، والذي يملي عليهم ويبرر لهم

على الدوام السلب والنهب والتتكيل بالآخر أياً كان، هو السبيل الوحيد للحفاظ على سلطاتهم وتوسيع نفوذهم. هؤلاء أبناء العاهرات ليس لهم سوى بُعد واحد فقط هو البعد الإجرامي الذي يظل على الدوام يغذي هذه الصفة المطلقة فيهم صفة أبناء العاهرات، لقاء ذلك ماذا يمكن ان نفعل إذا كان أبناء العاهرات أقوى من المشيئة؟!.

ثم لقد كان لعودتي أسباب أكثر من ذلك، حيث أنني توقعت أن أموت في أي لحظة، ولذلك فقد فكرت ملياً في الأمر، فلو أنني مت فأنا لا أريد أن أدفن في مثل تلك الأوطان التي لن يختلف باطنها عن ظهرها لا أقصد من حيث الجحيم بل من حيث الشعور بالغربة، نعم إن شعور الميت بالغربة هو موت آخر أعمق من الموت ذاته، إنها تعمق الشعور بالموت والوحدة، ولعل أن يدفن المرء في أرض وطنه فيه نوع من العزاء، فمن حرم حقه على ظاهر الأرض فلن يحرم حقه في باطنها، المهم ان يدفن فيها، وإن كان مظلوماً فسيظل شبحة قريباً من مسرح الجريمة والمجرمين، وعندما تتحقق العدالة يكون شاهداً على ذلك، حتى إن وجد التفاتاً من قوى الكون العليا لمظلمته كانت الأدلة قريبة وفي المتناول. والأكثر أهمية أنني لو مت حينها سيفرض نقل تابوت جثتي على أي شخص من أقاربي قد يهمله الأمر بعيداً عن أي اعتبارات قبل الموت مبلغ 5 آلاف دولار وهنا ستكون مشكلة كبيرة، فأنا أثق تماماً أن مثل هكذا مبلغ قد يفرض على أي قريب أن ينساني إلى الأبد، ويعلن عدم معرفته بي إطلاقاً.

هكذا وجدت نفسي داخل التجربة دائماً، في حالة تشبه حالة النملة التي تواجه الفيل.

كيف يمكن ان يواجه المرء هذه الحياة حين يجد نفسه منتمياً إلى أب كوالد محمد شكري، وأم كوالدة بلزك، واخوة كأخوة يوسف، وعمات كـ"عمة قعيس"، وأصدقاء كأصدقاء يوليوس قيصر، وصديقات كنسوة المدينة؟!!

لا أصدق أنني قد ولدت هكذا لكنني فهمت مؤخراً بأنني كنت دائماً تلك النملة وكانت الحياة التي عشتها قطعاً هي الفيل دوماً.

إنه حال "الشعرة البيضاء" في شعر الخروف الأسود. الذي يصفه المصطلح الإنجليزي "Black Sheep" تمييزاً في قطيع الخراف البيضاء كدلالة على اختلافه السيء عنها، حين أرى العالم قطعاً من الخراف البيضاء، لا أرى هذا الوطن الذي أعيش فيه سوى هذا الخروف الأسود وأنا الشعرة البيضاء التي يتزين بها شعره الحالك الذي يكسو جلده.

ربما هي ترضية مناسبة نوعاً ما، أعزي بها نفسي دائماً حتى لا أقضى بالحسرة، لأن من يعيش في الوطن العربي ليس له في أفضل الحالات سوى خياران الأول سيء، والآخر أسوأ منه.

لولا أن ثمة تعميم هو أن الصواب جماعي والخطأ فردي وتعمم هذا الدور إلى مختلف مجالات الحياة بأكثر مما تحمله من خطأ في الفكرة ومحتواها ذاته فأصبحت تمثل الشللية والتكتل في الممارسة السياسية والاجتماعية والثقافية والعلمية وغيرها وغباء الأفراد وفشلهم يغطي عنه صواب فكرة الصواب

جماعي. وكل مختلف مهما بلغ عبقرية وابداعا وعلما منبوذ في كل الحالات ومهضوم ومسروق الفكر والمعرفة لحساب ذات الفكرة ومفهومها. بمعنى اننا هنا تجاه خطأ مركب يمثل إنحدار وإنحدار الإنحدار في المعرفة والمفهوم.

لذلك فإن تكون مميزاً فذلك مما لا تحمد عقباه في مجتمع من المجتمعات الدنيا أو الأقل دنيوية.

وكذلك أيضاً فلقد ولدت اشتراكيا سمحا بالفطرة وربما كان هذا نتيجة خلل في تركيبية جيناتي الوراثة أو مرضا ولدت به جعلني أبدو شادا غيبيا بليدا أحمقا في مجتمع رأسمالي فضيلته التي يعتد بها على الدوام هي أنه يأخذ ولا يعطي، وهذا الأخذ لا يهم أن تكون له طبيعة أي الشككين السائدة في العادات والتقاليد الاجتماعية والدينية. هذا الحال هو حال ذئب وحيد بين قطع من الكلاب، لا تفكر في شيء سوى الفتك به، ولا تكن له غير الكراهية.

هذه الطبيعة السمحة جعلت حياتي كلها أزمة فما أكاد اخرج من مشكلة حتى أواجه أخرى، مثلا، عملت طيلة عشرين عام في الكتابة للصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية ولن يبلغ حصاد كل هذه السنوات ما أستطيع ان اشترى به حتى جهاز كمبيوتر، ومن المشاكل الأخرى لمن هو بهذه الطبيعة الكريمة لا اقصد ماديا فقط بل وحتى فيما يملكه من أفكار وعلم، أن يفسر دائما كرمه بطريقة خاطئة، وأيضاً فإن الطمع فيه يجعل للآخرين سبيلا لنصب المكائد له على الدوام ليخضع لأهوائهم، وهلم جرا. الآخرون آلة لنصب المكائد.

لقد عدت اضطرارياً بفعل فاعل وخوفاً من ألا أموت في تلك الأرض، لكن ما زال لي أمل في الذهاب بعيداً، ولكن ذلك قد يتأخر وكأمر حتمي لا بد منه عليّ مواجهة كل شيء قد ألقاه في هذا الجحيم الذي عدت إليه لأن الضعف ذاته الذي لطالما تباهيت به لن يستطيع أن يحميني، لن يشفع لي بؤسي وقلة حيلتي نواياي الطيبة. لن أجد أي فرصة عمل، وسأضطر أن أحارب على كافة الجهات.

إن قانون الغابة أكثر شرفاً من قوانين عالم البشر، فصياد الغابة الشريف لا يمكن أن يصطاد غزالاً عند نبع الماء، هذا النبع في عالم البشر مستباح تماماً بالنسبة لقوى الشر، ففي عوالم المؤسسات الفاسدة أياً كان نوعها اجتماعية أو حكومية لا يتورع الفاسدون عن محاربة عدوهم في مصدر رزقه ثم وبعد معاناة، تنتهي غالباً بالموت لهذا الشخص أو الجماعة، وفي حالات النجاة من الموت والإزالة التامة من الوجود، يحصل هذا الكيان الذي تم محاربتة، إن نجا، على فتات كحسنتات تلزمه السكوت عن كل ما ارتكب ضده من جرائم وإقصاء واستبعاد.

معظمهم يفهم الأمور على أنها شخصية وهذا منطق معظم الولاءات الضيقة في تعاملاتها مع أي نقد هدفه تصحيح الأخطاء وبدلاً من الاستئناس بالنقد والسعي لحل المشكلات يدخل هذا التوجه أو ذلك في صراع جديد مع كل معارض غرضه فيما يطرحه نبيل وليس افتعال مشاكل أو ان انتقاداته دافعها شخصي. هذا ما تفهمه معظم التوجهات حتى في تعاملاتها مع المظالم واصحابها فإن ارتفع صوت المظلومين تم حرمانهم واقصاؤهم وان انخفض صوتهم لم يسمعهم أحد وان كان

متوسطاً فيتم التعامل معه وفق أساليب الأنظمة والتوجهات في دوائرهم ومؤسساتهم المألوفة التي تحتاج إلى عمر إضافي لاستحقاقها.

هذه الكائنات المريضة التي يمتلئ بها هذا العالم تبدو في موضع أقل من الحيوانات شرفاً ومروءةً بل لا يوجد في منطق تعاملاتها أي شرف أو أخلاق، فهي لا تتورع في قطع رزق أحدهم لمجرد أنه يختلف معها في الرأي أو في التوجهات، لكن الحيوان لا يفعلها حتى مع صيده الضعيف والأدنى قوة فلا يصطاده في مكان مشربه فتلك من مكارم الصياد الشريف. بل إن شخصاً نافذا كالوزير الذي تكون موظفاً لديه لا يتورع مطلقاً في محاربتك بكل ما أوتي من نفوذ فيتصرف وكأن الآخرين امتداد لذاته وليس عليهم سوى أن ينفذوا ما يؤمرون به حتى ولو كان في ذلك اتهام اعداءه بأنهم على علاقات جنسية مع الحمير التي يقودها ويأمرها لتدميرهم.

ووفقاً لنظرية الطبقات يصبح المجتمع بفضل وجود هذه الكائنات طبقتين، الأولى نافذة، والثانية مقموعة مطحونة لكنها مسخرة مطلقاً في سبيل خدمة النافذين، إنها تشبه ان يجتمع رجل بامرأة ويكون الشيطان ثالثهما (وفقاً لنظرية الثقافة الإسلامية عند العرب على الأقل). ماذا يحدث هنا؟

لقد جعلني كل ذلك أفكر مراراً ومراراً ولا أنكر أنني مازلت أحمل في جيبى وصية كتبتها وعزمت على توزيع نسخ منها على كل من يهمني أن تصل إليه قريباً أو بعيداً سطرت فيها قائلاً:

" لقد كان الله رحيماً بي جداً حين ترك لي حرية اختيار الوقت الذي أقرر فيه الذهاب إلى عالمه، أي عندما أشعر بأنني لا أملك المزيد من القدرة على احتمال كل هذا الخبث الذي لطالما تريت في مواجهته بجديّة على أمل ان يجد له مخرجا من خبثه نحو غايات أرحب وأكثر إشراقاً لولا أن جوهره لا يثبت إلا أن تلك غاية من المحال ان يدركها مهما بلغت نواياه من الحسن ومهما كانت إدعاءاته في الرغبة التي يزعمها بين حين وآخر للتغيير. وأظن أنني قد أدركته ذلك وقد بلغ البلاء والسأم من كل هذا الخبث مني مبلغه.

ماذا يتوقع هذا العالم الآن وهو يستमित بإصرار المنكر لذنبه خوفاً من العقاب أن يثبت براءته من اللؤم، وبالمقابل ضياعي، غير أن أقرر لأدينه بطريقتي التي لا تعبر سوى عما عرف عني من السمو والترفع وهو ان أذهب إلى حيث يمكن ان أجد حيزاً أوسع من هذا الورطة التي لا تزيد بالتقادم إلا ضيقا ويسمونها الحياة.

ما أحقر الحياة في كل أشكالها حين لا تثبت تفاهتها دائماً سوى أنها أدنى من أن يكون لها خاتمة كالموت.

لقد تربي الوجد معي دائماً، والحزن، والحرم، لقد كان هؤلاء هم إخوتي وأصدقائي دائماً، والآن كبرت وكبروا معي وأصبحت الدنيا أصغر من استيعابنا إلا بشرط وهو أن يترك أحدنا إخوته واصدقائه ولأنهم خالدون وأنا فانٍ فيجب أن ارحل وأترك لهم هذا الحيز الذي أشغره ليستمروا في وصف حكاياتهم وقصتنا معاً، كيف عشنا وماذا رأينا وماذا أصابني وأصابهم وصبرنا عليه.

إن الجوهر الذي ولد منه هذا العالم ليس أكثر من سديم ولذلك مهما إدعى ان يشرق فروحه مسكونة بذلك السديم ولا جدوى من تحريضه على الإنفتاح على الضوء.

ومع ذلك فلم يكن هذا السديم ولا تفاصيله المعتمة من هواجسي ولا مما قد يهمني أن أتعرض له بأي ممارسة في سبيل تغييره ورغم ان كل مصائبي كانت دائماً دس انفي المسكين في هذه الممارسة إلا أنني ما زلت بريئاً من ذلك وليس لي هم ان يصلح الخبث واللؤم من شأنه أو يستمر في طغيان فساده.

لقد كانت جل ممارستي هي في سبيل التنوير بقضية أحملها أما عدا ذلك من إصلاح شأن أو إفساده فلا يهمني ذلك إطلاقاً بل أنني في أفضل حالاتي كنتُ استمتع باللهو بنماذجي التي اختارها قالبا لأمارس من خلاله التلميح حيناً لما أجده من معاناة وأحياناً التصريح.

أنني أثق تماماً أن هذا العالم قد يحقق غايته من الاكتمال في الخبث والقبح حين يتنازل أهل النوايا الحسنة عن الحيز الذي يشغرونه فيه، ولأنني اريد أيضاً أن أساهم في أن يحقق هذا العالم هذه الغاية فإنني أتنازل عن الحيز الذي أشغره، ولا شيء في ظني يؤكد انه حيز عظيم إلا حجم ما لاقيته وواجهته دائماً. إخوتي وأصدقائي وكل معارفي قريبين وبعيدين وكل ذويكم ممن يشاركونكم الحلم:

تستطيعون من الآن أن تتفرغوا أكثر مما تجدونه من انشغال في تسبب الأذية لي من جهد ووقت في سبيل تنمية مهاراتكم في نصب المكائد لمن تبقى من ذوي النوايا الطيبة، ممن

تعرفونهم، لتناولوا شرف الشر المطلق، الذي تعتقدون أنه السبيل الوحيد لتحرركم من معاناة سوء نواياكم.

لا أملك غير هذا التخلي لأشرفكم بكل ما فعلتموه من أجلي في حياتي دائماً، ولا أظن حتى بعد موتي أنني قد أسلم من بعضه او ربما قد يتعاضم أكثر حين تجدون لي ذكراً طيباً قد يفوح، ويزعج هذا الحيز الذي تشغره روائح نواياكم الخبيثة.

إن موتي لا يعني أنني لم أحب الحياة، او أنني لم أسعى إلى أن أحقق ذاتي، مهما بلغت الصعوبات، أو حتى أنني أجسد بهذا التنازل عن حياتي قلقاً نفسياً، أو اختلالاً في التفكير. كلا فلقد كنتُ مبتسماً دائماً، مترفعاً، حتى عن الشكوى، مهما بلغ بي الكرب والألم. وقد كنتُ دائماً أكافح قلقي، الذي يتعمد كل شيء أجده حولي أن يجعلني أسكن فيه بطريقة سادية متوحشة تعبر عن أمراضه التي يعاني منها، ولقد بلغ ذهني من النقاء ذروته حتى جعلني لا أجد حلاً غير هذا الحل، لأريح من قد يأتي من حديثي عن كل هذا الرماد وأستريح.

لم تثبت هذه الحياة دائماً إلا أن الإنسان النظيف لا يمكن أن يكون له قيمة في أي يوم في عالم الحشرات.

إن الأشياء بطبيعتها لا تميل إلا إلى كل متشابه، وما تنافر منها تباعد، ولإن هذه الكتل الخبيثة لا يسكنها غير اللؤم، وحيثما وليت وجهك لن تجد غير ريحها فالعالم الآخر هو الملاذ النقي لما اشعر بوجود ما يشابه ما يسكنني فيه من أنواء وبساتين وظلال وسلام لم يشكل في ضخامته سوى مشكلة استيعاب لما يملكه العالم هذا من الوعي.

ظافر الخالد

كان ظافر الخالد يعمل باحثاً في أحد المراكز البحثية في جنوب اليمن، وكان يعيش حياة مستقرة مع زوجته وأطفاله، وقد ظل صامتا طيلة عامين منذ بدء الحرب إزاء ما يحدث في الوطن، ثم قرر بعد ذلك أن يتخذ موقفاً مما يحدث.

كتب ظافر الخالد ورقة بحثية نقدية حلل فيها "الصرخة" شعار جماعة أنصار الله الطرف الآخر في الصراع الدائر، وبلا أي خوف أو تردد قام بنشرها، وكان عليه أن يستعد بعد ذلك لكل ما قد يحدث من عواقب، ما فكر به وما لم يفكر به، وبالفعل لم يكد يمر وقت قليل حتى تقرر إيقاف راتبه أولاً، ثم صار مطلوباً على الجهات الأربع، وحينها كان عليه أن يتخذ موقفاً آخر لكن في هذه المرحلة لا بد أن يكون موقفاً أكثر تدبيراً وأسرع تنفيذاً، فحياته وحياة أسرته على المحك، وكان عليه نتيجة لذلك أن يسرع في الخروج من اليمن.

إن الشجاعة في أعظم حالاتها لا تعني انعدام الخوف وإنما وجود الخوف مع وجود قوة الإرادة على المتابعة.

لم تكد تمر سوى أيام قليلة جداً حتى كان ظافر الخالد قد تواصل فيها مع اصدقاءه وكل معارفه، هنا وهناك وفي كل مكان يعرفه وخطر على باله، ولقاء كل هذه المراسلات والاتصالات كان أحد أصدقاء ظافر الخالد قد تفهم خطورة الموقف جداً، ولم يتوانى مطلقاً في مد يد العون لصديقه، ورغم أن هذا الشخص

ليس يمينا ولا تربطه أي قرابة غير الصداقة مع ظافر الخالد، إلا أن خوفه على صديقه وأسرته وما قد تتعرض له من أذى، قد جعله يسارع بحجز أربع تذاكر سفر، لظافر الخالد وعائلته ووفقاً لاختيار ظافر الخالد للوجهة التي سيذهب إليها فقد كان ذلك الحجز إلى الجزائر.

ولعل ظافر الخالد قد فطن إلى أن الجزائر دون غيرها من الدول العربية، وبسبب الحرب، هي الدولة الثانية بعد الأردن التي لا يتطلب دخول اليمنيين إليها أي فيزا، والأكثر من هذا ما عرف عن الجزائر دوماً في علاقاتها مع اليمن فشعبها عظيم ولا يظلم عنده أحد.

حين تقرر أن يسافر ظافر الخالد وعائلته على متن طيران الفرنسية من سلطنة عمان عبر الرياض ترانزيت، سافر ظافر الخالد وأسرته بحرا على متن زورق تتقاذفه الأمواج وأرواحهم بأكفهم، فمن يركب البحر لا يخشى من الغرق، لقد كانوا أشبه بذلك العجوز في رواية إرنست هيمنغواي ودواليك حتى وصلوا إلى سواحل عمان وبعدها أعدوا العدة للسفر على متن الطائرة وحين ذهبوا إلى المطار تفاجأ ظافر الخالد أن الطائرة الفرنسية المقرر سفره عليها، وفقاً للحجز، لم تأتي، وبكل سهولة لم تجد حرجاً مطلقاً هذه الشركة من ألا تقدم اعتذارها للمسافرين عن تأجيل رحلتها حتى إشعار آخر.

لكن ألم يكن أفضل من كل هذا البرود والاستهتار المعيب من قبل شركة الطيران الفرنسية أن تعتذر لهؤلاء الذين حجزوا لأنفسهم تذاكر ليسافروا على متنها من الوافدين من اليمن، وتقوم بتعويضهم؟، ثم إن دخولهم إلى سلطنة عمان بالنسبة للمواطنين

اليمنيين يحتاج تأشيرة أولاً، وهذا صعب جداً، ولا يحدث بسهولة وفي وقت قصير إلا في حالات الضرورة التي تقررها مصلحة الهجرة العمانية، وفقاً للوائح قوانينها وتعاملاتها، وإن كان مجرد مسافر فقط فستكون تأشيرته للعبور من الحدود فقط إلى صالات المطار، ولا يمكنه مغادرتها مطلقاً إلا على متن الطائرة إلى حيث وجهته، لكن ووسط كل هذا الإهمال لم يكن امام ظافر الخالد سوى مواجهة مصيره، ولم يكن أمامه سوى المكوث في المطار حتى يجد حلاً، أو يقرر العودة إلى اليمن، وهذا كان مستبعداً تماماً من فكره، بسبب الخطر الذي يحقق به وينتظره لو أنه فعلها وعاد.

بعد مرور ثلاثة أيام في مطار السلطنة، وظافر الخالد وأسرته يقاومون تحت جحيم المكيف الذي لا يضاهيه شيء إلا جحيم الصيف في شهر مايو، في مدينة مثل مسقط، ولا سبيل لمقاومة ذلك الجحيم واحتماله إلا بجحيم آخر هو جحيم الصبر تحت أزيز وبرود المكيفات، ووسط تلك المعاناة لم يلتفت إلى ظافر الخالد وأسرته أحد، ربما لأن اللوائح القانونية عادة أهم من السلامة البشرية في الحالات التي لا يستوعبها القانون بأي استثناء، ومع ذلك فإن شيئاً جميلاً ينم عن أهل سلطنة عمان وكرم أخلاقهم كان لابد أن يحدث لينقذ هذه العائلة مما هي فيه ويمد يد العون لها، وقد صادفت هذه الأسرة في اليوم الثالث شيئاً من تلك الإنسانية والتصرف الأخلاقي التي يعرف بها شعب عمان عامة في تعاملاتهم مع اليمنيين تحديداً، فبادر أحد العاملين في المطار بنقلهم إلى الصالة الذهبية في المطار، وكان على ظافر الخالد ألا يركن إلى ذلك كثيراً، فوضعه يوجب عليه أن يواجه الأمر بجدية أكبر، خصوصاً أن ما كان بحوزته

من مال كان قد أوشك على النفاذ، فالعملة العمانية وسعر صرفها مقابل كل العملات يشبه المقارنة بين النملة والفيل خصوصا مع عملة كالريال اليمني، والأسعار في المطار وفقاً لهذا تعتبر كارثة بالنسبة لما يدخره ظافر الخالد في جيبه، وحينها كان لا بد ان يتواصل ظافر الخالد مع أحد الأصدقاء الذين يعرفهم جيداً في مدينة مسقط ليبادر بكرم في إرسال مبلغ 200 ريال عوناً لظافر الخالد وعائلته.

ثم كانت مغامرة أخرى من ظافر الخالد تلافياً لخطورة تفاقم الامر، حين لم يجد بُدّاً من حجز أربع تذاكر أخرى على متن طيران العمانية إلى الرياض، ومن هناك سيستقل الطائرة الفرنسية التي لم تحضر في موعدها إلى مسقط باعتقاد ويقين أنهم سيتفهمون ذلك ويسمحون له بالسفر على متنها ليصل إلى الجزائر كما أخبره بعض العاملين في المطار بمسقط.

وسافر ظافر الخالد إلى الرياض وهناك حولته الفرنسية بعد اعتذارها للمرة الثانية عن وجود رحلة إلى الجزائر على طيران الهولندية لكن طيران الهولندية رفض أن يصعد معها وتحججت بأنه لا يملك فيزا تشنجن تمكنه من السفر معها وتسمح له بأن يطأ الأراضي الأوروبية، حيث ستتوقف ترانزيت في باريس وميلان قبل أن تصل إلى الجزائر.

بعد كل هذا التشرد والعذاب لم يجد ظافر الخالد أمامه سوى الذهاب إلى دولة أخرى غير الجزائر لا تشترط فيزا لدخول اليمنيين إليها وكانت الأردن هي محطته التي لم يكن أمامه غير الذهاب إليها.

هناك في الأردن باشر ظافر الخالد بالبحث عن سكن ليقيم فيه مع أسرته قبل أن يبدأ في التفكير عن مصير أفضل ومصدر لكسب الرزق وتوفير الضروريات.

لم يجد سكناً يناسب إمكانياته المادية المتواضعة ولم يكن يملك أي خيار غير أن يتكيف مع الوضع.

أستأجر غرفة مع حمامها، وكان هذا أقصى ما يمكن أن يجده متناسباً مع إمكانياته المادية.

بعد أيام قليلة بدأ ظافر الخالد بالتواصل مع اصدقاءه في كل مكان، عله يجد من يدلّه على فرصة، أي فرصة.

بعد فترة تقصي وبحث مضية أرشد أحدهم ظافر الخالد إلى آريانا كلود، وهي مستشارة دولية في حقوق العاملين في حقول الفنون والثقافة والمجال الأكاديمي والتي أرشدته إلى التواصل مع عدد من المنظمات.

وبالفعل تواصل ظافر الخالد مع معظم منظمات الحماية والإقامة الدولية لكن واحدة منها فقط هي من تجاوزت معه وتطابقت شروطها مع ما يملكه.

إن معظم هذه المنظمات العاملة في شتى الحقول المتخصصة في مساعدة المضطهدين والمعرضين للأخطار قد فرضت تعقيدها وبروتوكولاتها سبيلاً للاحتيال عليها، بدلاً من أن تكون لوائحها من أجل خدمة أهدافها وحمايتها من الخداع والتضليل بل ويمكن القول أن هذه التعقيدها في معظم الأحيان لا تخدم المتضررين بل تقصيمهم وتعرضهم للمخاطر ولا يستفيد سوى المخادعون فقط نظراً لأن قوانينها تتوافق مع إمكانياتهم

فهؤلاء عادةً وهم من العاملين في حقول الفنون أو الثقافات والمجال الإعلامي والأكاديمي يتسم نشاطهم دائماً بالشلليات والتكتلات والشبكات المشبوهة، وبمجرد أن يحدث ما يمكن تسميته بالتافه الذي لا يضر، وأحياناً يكون مستحدثاً مكذوباً، تقوم الشبكة كاملة بالتعاون معه، بكل ما تملكه من ادوات، لينال ما يخطط له، خصوصاً وهذه المنظمات تغدق عليهم اموالاً يكفي حجمها ليفكك مفاصل العقل والتخلي عن كل مزاعم من أخلاق وشرف تدعيه هذه التكتلات دائماً. فالمواقع الإلكترونية التابعة لمثل هذه الشبكات والشلليات وكذلك الصحف لا تجد حرجاً من نشر أخبار كاذبة ليس لها أي أساس من الصحة في سبيل دعم هذا الشخص لينال أموال المنظمات بل وتفتعل أحداث جلبة تتسع ليروج لها عبر وسائل الإعلام المرئية من تعرض أشخاص لمحاولات اغتيال واعتداءات وملاحقة جماعات وعصابات لأشخاص بل ويتسع أكثر ليتطوع أشخاص كثيرون بتقديم شهادات زور عن أشخاص ضد آخرين واستهداف هؤلاء من قبل أولئك والعكس أيضاً فلا تتحرج هذه الشلليات في تقديم شهادات الزور ذاتها حول أي شخص لا ينتمي إليهم بغرض استبعاده من أي منحة حماية ويستمر تعذيبه من قبل نافذين لهم صلات بهذه الشبكات بشكل غير واضح، وأحياناً لا يوجد أي صلة سوى ان الشخص المعرض للخطر يتسع خطره ليكون قاسماً مشتركاً لدى أطراف عدة ويجب تدميره حماية لمصالحها.

وهكذا لا تجد هذه المنظمات تجاه هذه الشهادات المكذوبة سوى أن تماطل وتتهرب في عدم التعاون معه حتى يتم تدميره تماماً وينتهي به الحال ميتاً أو في غياهب السجون أو مدفوناً فاقداً صوابه حيث لا يعلم بذلك أحد.

استمر ظافر الخالد في التواصل مع تلك المنظمة طيلة عام وسبعة أشهر عانى خلالها هو وأسرته الأمرين ولم يترك أحدا يعرفه إلا واستدان منه المال حتى تجاوزت ديونه مبلغ العشرة آلاف دولار بالإضافة إلى أنه كان يعمل بجد ليلا ونهارا ويكتب ويراسل المجلات الشهرية والفصلية والدورية ليحصل منها لقاء كتاباته على مبالغ زهيدة لكن ورغم ذلك أفضل من المكوث بلا أي عمل.

لقد كان ظافر الخالد يفهم جيداً أن فكرة الجبنة المجانية لا يمكن أن توجد إلا في مصيدة الفئران، لذلك كان لا بد من ضريبة يدفعها لقاء النجاة والخلص.

ثم إنه التحق بمعاهد تعليم اللغة الإنجليزية ليتعلم اللغة، بعد أن وصلته موافقة مبدئية بقبول ملفه لدى منظمة الحماية، تمهيدا لحصوله على منحة إقامة المدن التي قدم طلبا لهم بخصوصها، وبقوة إرادة وعزيمة عالية لم يكد يمر عام حتى كان ظافر الخالد قد بدأ بالفعل بالكتابة للمجلات الإنجليزية بلغتها.

لقد كان يحز في نفسه أكثر مما فقدته هو حرمان ولديه من التعليم لعامين دراسيين نظراً لصعوبة ذلك بالنسبة لمن هو في وضعه وفي دولة مثل الأردن.

إن الإقامة في دولة عربية بالنسبة لمواطن عربي تواجهه بلاده حربا يشبه المهمة المستحيلة، فهي لا تقل في معاناتها وخطورتها ومخاوفها عما يمكن أن يلاقيه المرء في وطنه المشتعل حربا لكن الفارق البسيط هو فيما يجده من خدمات أساسيه تستمر بها الحياة لا يمكن أن تتوفر له في وطنه بسهولة

بسبب الحرب. إنه كراكب البحر إن سلم جسده من الغرق لم يسلم قلبه من الخوف.

في أيام الشتاء القارس لم يكن ظافر الخالد وأسرته يجد في تلك الغرفة الضيقة التي يعيشون بها ما يستدفنون به غير أنفسهم، فلا وسائل تدفئة إلا مجرد أغطية بالية لا تضر و لا تنفع.

لقد كان الصمود خيارهم الوحيد، ورغم أن ظافر الخالد من زمرة الأكاديميين والمثقفين إلا أن ذلك لا يعني الكثير بالنسبة للمؤسسات الأكاديمية والثقافية في الدول العربية، لتكتشف أن شعارات كثيرة كالإنسانية والثقافة وغيرها لا تعدو أكثر من كونها مصدرا للتكسب والكلام المكتوب على الورق، ولا يمكن أن تبلغ أكثر من ذلك. والاهتمام الذي قد يلقاه الأفراد المثقفون والأكاديميون فيها من قبل الوسط المثقف والأكاديمي، لا يعبر إلا عن اهتمام سطحي كأشعة الشمس حين تلقي بأشعتها على الأسطح لكنها لا تتغلغل إلى الأعماق إلا لماما، فلا أحد يمكن ان يكلف نفسه أكثر من مجرد إلقاء التحية والسؤال العابر عن الأحوال، أما التواصل المستمر فهذا مما يتعذر جداً أن يوجد، ربما لعدم الإيمان بالقضية الأخلاقية التي تستوجبها الثقافة على حاملها.

لقد أقام ظافر الخالد سنة وسبعة أشهر في مدينة عمّان، كله رجاء أن تثمر جهوده، فعدا الضيق المالي الذي يحاصره من كل الجهات، هناك الغربة التي تجعل الأفق ضيقاً كسم إبرة، وقد تحقق انتقاله بعدها إلى السويد بعقد منحة إقامة مدته عامين...

حين وصل ظافر الخالد إلى مطار عمان ليغادر مع أسرته نحو السويد، كان عليه أن يواجه شيئاً ربما كان قد غفل عنه، وهو

موضوع تجديد الإقامات، وقد طلب منه مكتب الجوازات مبلغ 1800 دولار كغرامة عدم تجديد الإقامات الخاصة به وبأسرته، ولم يكن لديه سوى خيارين، الأول أن يدفع والثاني أن لا يدفع، ولكن حينها سيتم ختم جوازاتهم بتأشيرة الخروج النهائي الذي لا رجعة لهم إلى الأردن بسببه إطلاقاً في أي يوم، ونظراً لأنه لا يملك غير ألفي دولار كانت المنظمة قد أرسلتها له مع تذاكر السفر وعقد المنحة، فقد دفع ما عليه هو من غرامات، ووافق على ختم جوازات زوجته وولديه بتأشيرة الخروج النهائي.

وما زال ظافر الخالد يناضل ويكافح بتلك البلاد، لأنه بعد انتهاء مدة العقد لن يعرف إلى أين سيذهب.

أريانا كلود

أريانا كلود الإيطالية، سيدة في الخمسينات من العمر، تعمل كمستشارة دولية في حقوق الفنانين، وتعيش متنقلة بين إيطاليا وأمريكا حيث تعيش والدتها التي ليس لها أحد يهتم بها ويرعاها سوى أريانا. وهي تقسم نفسها بين العمل الذي تقوم به وبين الواجب الذي يلزمها رعاية والدتها المسنة، وتعهدها بالزيارات بين الحين والآخر.

قبل أن يصبح اسم أريانا كلود علامة فارقة، كمستشارة دولية في مجال حقوق الفنانين، ومحاضرة عالمية في مهارات التواصل، كان على أريانا كلود تعمل لثمان سنوات متواصلة تطوعاً، بلا أدنى مقابل، ويعود لها الفضل الكبير في نجاة الكثير من الفنانين في تلك البلاد التي تواجه الحروب، أو حتى ممن تستهدفهم السلطات أو الجماعات الدينية أو السياسية أو غيرها من الحالات المستهدفة، نتيجة لخروجها عن النص، والتفكير خارج الصندوق.

لقد استطاعت أريانا كلود بخبرتها أن تساهم، مع آخرين، في تأسيس كيانات كثيرة لتوسيع نطاق المؤسسات العاملة في مجال نصرة الفن والفنانين، وإرشاد المستضعفين إلى أماكن الحصول على الحماية مما يحدق بهم من أخطار، وهي ليست كأى إنسان قد يعمل في مثل هذا المجال، أو حتى غيره من المجالات التي تعتمد على التواصل المستمر مع البشر، ففي العادة لا بد من

إجازات عمل يعتذر معظم العاملين، في نفس هذا السياق، عن الرد على الآخرين من الشرائح التي يكون مهمته خدمتهم وإرشادهم وتقديم النصح لهم، في فترات الإجازة سواء الأسبوعية، أو حتى في الأعياد والمناسبات الرسمية، إلا آريانا، حيث من المؤكد أنه قد تصلها رسالة في إجازة عيد الميلاد برأس السنة، أو غيرها من الإجازات، لكنها تجعل الأمر مختلفاً جداً حين يرسل المجيب الآلي لبريدها على تلك الرسالة مفيداً أن آريانا كلود في إجازة، ولا تكاد تمر دقيقتين فقط حتى تبعث آريانا كلود نفسها رسالة لإرشاد ومساعدة صاحب تلك الرسالة، أياً كانت مشكلته التي يعيشها، وأياً كان ما يحدق به حتى ولو كان نفسياً.

وإذا كانت الفطرة الإنسانية تفرض على المرء حب من لا يغيب، فحينها سيكون المرء مجبراً على حب آريانا كلود لأنها ليست من الأفلين.

آريانا كلود مثقفة جداً، وبسيطة ومتواضعة، وهي لا تؤمن بالأديان كما أنها لا تكفر بها، لكنها تذهب إلى أبعد من ذلك بكثير، حين ترى أن إنسانية الإنسان أهم من معتقداته، وفلسفتها المفضلة هي فلسفة "غرامشي"، ولطالما تبعث للآخرين بين الحين والآخر، ممن تساعدهم، بعض اقتباسات فلسفتها المفضلة، لتقوية عزائمهم، ويشتد بها بأسهم، وكما لا يفقدون الرغبة في النجاة.

ترى آريانا كلود من يعتنقون فلسفة الأمل في حياتهم هم أكثر الناس تعرضاً للانكسار والهزيمة والخيبة، فالقرف الذي قد يلقيه المرء مما يفرضه عليه عمله اليومي، الذي له طبيعة التواصل

مع الجمهور في أي مجال، يفرض على المرء أيضاً الاحتياط له، ومن تلك الأساليب الاحتياطية ما تفعله آريانا كلود للتخفيف من وطأة كل ما يمكن تخيله من القرف والسوء في عملها اليومي، وبدلاً من التحلي بالأمل في تغير ما يحدث، وهو في الحقيقة لا يمكن ان يتغير إلا إلى ما هو أسوأ، نرى أن طريقة آريانا كلود تجعلنا امام فرضية أجدى بكثير من الأمل وفلسفته، وهي ان يتخيل المرء مع كل صباح يستيقظ فيه وقبل أن ينطلق إلى ممارسة عمله انه يتناول ضفدعة كاملة، ثم لا يتوقع بعد ذلك أنه قد يصادف في يومه ما يمكن اعتباره أكثر قرفاً أو أشد سوءاً من ذلك، وبالتالي لا يتضايق أو يكره عمله بسبب ما يلاقيه، ولعل هذا هو الحل الأمثل والبديل الأفضل لمن يعتنقون فلسفة الأمل ثم يصابون بالخيبة الكبيرة حين لا يصح مع الأمل شيء، فالحياة لا يحكمها الأمل ولا يمكن الاعتماد على المنطق أيضاً في تفهم ما يحدث فيها من سوء، وما يجد المرء فيها من القرف.

آريانا كلود أيضاً حكيمة جداً، فما صادفته في حياتها المهنية من قصص ومآسي، لا تعد ولا تحصى، بالإضافة إلى بحثها المضني عن حلول لإنقاذ أصحاب تلك المآسي، نظراً لما تفرضه طبيعة عملها عليها، جعل لها رؤية ذات عمق بل ذات غور سحيق، ولا أحد يمكن أن يكتشف ذلك، أو يراه، إلا إن كان له في الفلسفة والتأمل صاع وباع، يتضح ذلك حين تصلها رسالة، فيها من الفلسفة والعمق والفكر، ما يستوجب الرد عليه بمثله، حينها تكون رسالة آريانا كلود هي أعمق مما يمكن أن يجده المرء في كتب أعظم الفلاسفة.

لقد عاشت آريانا كلود من خلال تلك الحالات، التي ترشدها وتقدم العون لها، الكثير من مآسي الشعوب التي تسببها الحروب والنزاعات، وشاهدت الكثير من بشاعات ما يفرضه الفكر المتطرف على أصحابه، من ملاحقة كل صاحب فن او فكر، لمجرد مخالفته آرائهم، فيكون دور آريانا كلود حينها الإرشاد وتقديم الحلول الصحيحة والتواصل المستمر مع تلك الحالات، حتى تصل إلى بر الأمان، خصوصا أن الخوف أحيانا يفرض على تلك الحالات خصوصا حين لا تجد من يساعدها، أن تصل إلى مرحلة العجز التام، والاستسلام للمصير الذي ينتظرها وهو غالباً الموت، وهذه الحالات تقابلها آريانا كلود كل يوم تقريبا، ومن كل مكان في العالم، ويمكن القول أنها قد جعلتها تعيش كل مآسي العالم خلال الربع القرن الأخير من هذا الزمن، وفي البلدان العربية تحديدا عاشت آريانا كلود مآسي الفنانين والادباء الفلسطينيين والسوريين والعراقيين والمصريين والليبيين واللبنانيين والتونسيين واليمنيين وغير ذلك الكثير.

إنها تعيش ذلك كل يوم حتى صار جزءا منها، وتفرض ذلك عليها تلك القصص التي تجدها كل يوم في بريدها وتنتظر من آريانا كلود تجد لأهلها حلا.

لقد فرض ذلك عليها طريقة عملها، كما فرضت وفرته أيضاً تلك الطريقة ذاتها، فالحالات تكتشف بعضها بعضا، بطريقة سلسلة، تشبه فطرة التكاثر والتناسل في الكائنات، فمثلا، قامت آريانا كلود بمساعدة ظافر الخالد، وكانت حالته خطيرة جداً، وحياته مهددة جداً، حيث اجتهدت في البحث هنا وهناك حتى تم انتقاله إلى دولة أخرى كما حصل فعلا بعد أن انتقل ظافر الخالد

إلى الأردن، وثم استمر التواصل بينهما طيلة عام وسبعة أشهر، قبل ان يتمكن ظافر الخالد من الانتقال إلى مكان آمن كلياً بفضل جهود آريانا كلود أيضاً، وخلال تلك المدة في التواصل بينهما كانت آريانا كلود قد توصلت من خلال ظافر الخالد إلى حالات أخرى تعاني ما كان يعانيه أو أكثر، فتكون مهمتها التواصل مع تلك الحالات، ثم البحث عن حلول تنقذهم عبر المنظمات الإنسانية المتخصصة في تقديم الحماية لهذه الشرائح في العالم كله، ويستمر اكتشاف آريانا كلود للحالات الأخرى من خلال هذه الحالات، وهكذا تستمر القصص في التناسل والتفريخ، وتتفانى آريانا كلود دائماً في تقديم الحلول وتقديم كل مساعدة ممكنة أياً كانت حتى تصل بهذه الحالات إلى بر الأمان.

في سياق النتائج التي يخلص إليها العقل البشري من معاشة كل هذه القصص، قد تجد حلاً آخر لدى آريانا كلود، غير ما يمكن تصوره، وربما بإمكانه أن يضع حداً لكل هذه البشاعة التي ترتكب ضد الإنسانية، أو يخفف من وطأة الشر الذي يسكن هذا العالم. نعم بإمكانها أن تضع سيناريو آخر برؤية لا تكلف فيها، يمكنها من ذلك تجربتها الغنية التي عاشتها وتعيشها كل يوم، وقد يصدر ذلك منها بلا موعد وبلا أي تخطيط أو حتى تفكير مسبق، فيتم لمجرد أن ثمة شخص عانى الكثير جداً ثم في لحظة يأس واستجداً أرسل لآريانا كلود سؤالاً، وقد تكون محاولة الإجابة عليه ربما من حيث العقل صعبة جداً أو باعثة على الجنون، لولا ان الفلسفة التي تؤمن بها آريانا كلود وتجربتها الغنية التي صنعت تلك الفلسفة، وذلك الإيمان بها في نفس آريانا، كفيلة بأنقاذ هذا العقل من الجنون، فتكون الإجابة على سؤال من ذلك النوع وقد يكون: "لماذا يكره البشر بعضهم

بعضاً؟" بالقول: "لأنهم لا يجدون ما يحبونه". ثم تجمال الدين الغولي هذه الإجابة الباب لسؤال آخر: "وما الذي يفترض أنه يناسبهم أن يحبونه لكنهم لا يجدونه؟" لتكون آريانا كلود جاهزة بالطبيعة لطرح فكرة، ربما هي أقرب إلى الفلسفة أكثر من المنطق فتقول: "ربما كان من المفترض أن يكون هناك نسل آخر يحبهم نسل قابيل، هم بلا شك نسل هابيل، وحين قتل قابيل هابيل لم تجد ذرية قابيل من تحبها لذلك فقد كرست نفسها للكراهية والعداوة فيما بينها، أليس أبناء الأخ يأنسون بأبناء عمومتهم، ويكرسون أنفسهم في سبيل ازدهار الحب والتعايش والود فيما بينهم وتبادل المنافع ومناقشة الأفكار، وما إلى ذلك مما يمكن ان يحب تداوله أبناء العمومة فيما بينهم خصوصا حين يكونون في المتناول وفي نفس موقعنا من النسيج الاجتماعي، فلا نملك غير حبهم والتعايش معهم في محيط خاص توفره الحياة وتفرضه العلاقات الإنسانية والاجتماعية...

ربما كان على قابيل قبل أن يقرر التخلص من هابيل بالجريمة ان يترى قليلا حتى يقرر هابيل أن يذهب ليستكشف هذه الأرض وما عليها، فيستغل قابيل تلك الفرصة ويتزوج بتلك الأخت التي هيئت لتلك المهمة، ثم لعل هابيل سينشغل بالأرض وما عليها كثيراً قبل ان يقرر بالعودة ويدوم غيابه لسنوات وعندما يقرر العودة لعل قابيل حينها قد مات وتلك المرأة التي أنجبت له طفلين قد اصابها الحزن وطفلاها يشعران بالوحدة والحزن لكن عودة هابيل وزواجه بها سيفرح قلبها ويونسها كثيراً وحين ينجب طفلين منها ذكر وانثى مثلما انجب اخاه سيفرح طفلا قابيل كثيراً ويصبح الجميع فرحين يعيشون بالحب وعندما يكبر الاطفال الاربعة يتزوج ابناء قابيل بأبناء هابيل

بعد قصة حب عاشها منذ الصغر فيكون رباط الحب بينهم رباطا ابديا يجعل نسلهم يعيش حالة حب حتى الابد فيصنعون المعجزات وتزدهر الأرض بازدهارهم. " ولعل آريانا كلود ستكتفي بهذا القدر لكن سؤال "كيف؟" قد يحفزها أكثر لتعطي تفاصيل أكثر لتلك الفكرة فتقول: "إن العودة إلى بداية القصة واختلاق مسار آخر للقصة لإنقاذ البشرية هي أفضل ما يمكن الذهاب إليه وحيث إننا لا نملك سوى تصور واحد حول خلق الإنسان وأصل البشرية وهو قصة آدم التي اجمع عليها الكثير فلا يمكن الابتعاد عن ذلك التصور وإن كنا نريد ان نتعاطى مع هذه الفكرة فليس امامنا سوى التفكير من خلال هذا التصور فقط بعيداً عن تصورات ونظريات النشوء والارتقاء التي لن تزيدنا إلا ضياعاً.

لقد كان كل شيء مرتبط منذ البداية، فآدم لم يخلق من مكونات الجنة، ولكنه مزيج من مكونات الأرض، أو ان الأرض بنيت متطابقة في مكوناتها ومناخها مع تلك المكونات التي صنع منها آدم، أي أنها هيئت له ومرتبطة به، وكل اختلال قد يحدث في مكوناته يحدث فيها، لانها مرتبطة به، وكل ازدهار فيه يحدث ازدهاراً فيها، فماذا حدث إذن حتى أصبحت مهددة بالفناء، رغم أن نسل آدم ما زال يعيش فيها، وهل ذلك أيضاً دليل على ان ثمة ما يهدد البشرية أيضاً فانعكس حاله بالتالي على هذا الكوكب!

لقد خلقت في آدم تلك المكونات التي صنع منها مزيجاً بين الخير والشر، وكان أحدهما يمنح الآخر قيمة في هذه الحياة والصراع

بينهما يؤدي إلى ازدهار عظيم لكن ما حدث حين قتل قابيل
هابيل غير المسار تماماً!!

حين أنجب آدم ولدين وبنت ربما توزع في جيناتهم بالتساوي
مزيج الخير والشر، ولعل ذلك كان لحكمة يتصورها العقل
والمنطق، كما يحدث مع كل آلة أو معادن، أو مواد تستخرج
من باطن هذه الأرض، وهي ان يخصب هذا المزيج ويتصفي
قبل ان يمزج مرة أخرى ويكون صالحاً وله ثمرة عظيمة بعد
ذلك. ويفترض تحقق ذلك أن قابيل لم يقتل هابيل وتزوج بأخته
بدون أن يسيل الدم، ثم أنجب منها طفلين ذكر وانثى ثم مات،
حينها سيتزوجها هابيل وينجب منها طفلين ذكر وانثى، ويعيش
ليرعى أبناءه وابناء أخيه إلى ان يكبرا، ثم يتزوجا ببعضهما،
ويبدأ الجيل الذي تصفت جيناته تماماً من كل سلبيات المزيج
الخام الذي كان قد خلق منه آدم، لكن قابيل قضى على كل ما
يمكن أن يتحقق لذرية آدم بجريمته، وحين أنجب ورث جينات
يغلبها الطابع العدوانى الشرير الذي أخل بنظام الارض
المرتبطة أيضاً باختلالات المركب البشري.

وثمة زاوية مشرقة وبديل ممكن لهذا المسار المستحيل يمكن
رؤيته واكتشافه، وهو فكرة أن هابيل لم يأخذ كل شيء كان
يمكن ان يجعل حالنا أجمل بكثير ويرحل، فالنقص الذي خلفه
وأخل بالنظام تماماً، ما زال في يد البشر ان يخففوا من سخائمه
بالحب فقط، لأن السبب الذي خلف كل هذا منذ البداية هو غياب
الحب، وكل جريمة تدمر حبا وتحول دونه تضاف إلى جريمة
قابيل وتزيد من الكارثة التي سيعجل تراكمها من زوال البشرية
وفناء هذا الكوكب.

لا شيء قد يعوض البشر مما نقصهم بموت هايل والذي كان من المتوقع أن يضمن لهم سلاماً وبقاءً أبدياً على هذا الكوكب إلا الحب، وكلما ازدهر أكثر جيلاً بعد جيل كلما تمكن البشر من الاقتراب أكثر من حالة التوازن الايجابي في أنفسهم، وهكذا حتى تختفي تماماً ملامح ذلك النقص الذي لم يخلف سوى تأخر البشرية عما كان قد قدر لها رفاه وخير وانجازات لا يقدر عليها سوى ذلك العقل وتلك الروح التي كان يمكن ان تُخلق، ولا يجعلها في مأمن سوى حب عظيم يسري في أفئدة تلك الذرية التي لم يكتب لها أن تخلق...

ان الحب الذي ينشأ بين قلبين قد يوجد تحقيقه ونجاحه حلولا جذرية لكل مشكلة عظيمة تعاني منها البشرية، او يمنع مشكلة قد تحل بالبشرية، فأن يحال بين حبيبين يعني ان يذهب أحدهم إلى اخر واحدهم إلى اخر لا يحبه ثم يخلف ذلك نسلا غير صالح للتعايش لم تشكل روحه بالحب، وحتما ستظهر فيه امراض ليس لها شفاء فهو مختل في تكوين جيناته التي لا يمكن ان تكون صالحة في أي جسد إلا حين تكون ممزوجة بالحب، ويؤدي بالتالي توريثها إلى ان تساهم في زيادة آلام البشر، وما نعيشه اليوم من عصر به الكثير من الأمراض التي تفتك بالبشرية وليس لها علاج ليست سوى قصص حب لم يكتب لها النجاح او حال الاخرون دون نجاحها، وما تلك الادوية التي يكتشفها البشر للتخفيف مما تسببه تلك الامراض سوى نتيجة أيضاً لقصص حب نجحت أيضاً، ولأن الأرض مرتبطة أيضاً بهذا الإنسان فأمراضه وصراعاته كلها تظهر عليها بشكل لا يفهم منه هذا الإنسان الأحقق سوى انه اختلالات يسببها تغير المناخ أو غير ذلك لكنه لم يفكر يوماً في أن ما يعصف به هو

السبب الذي يعصف بها أو أنه لا يستطيع التفكير بذلك لأنه لا يؤمن بالحب وفاقد الشيء حتما لا يمكن ان يعطيه." وقد تصل آريانا كلود إلى هنا وتنتهي رسالتها لكنها بعد لحظات ستبعث رسالة أخرى تقول: "حين تجدون رجلاً قد أحب امرأة وهي تبادل ذلك الحب فباركوا لهما حبهما فمن نسلهما الذي تجري في شرايينه وبين أوصاله جينات الحب تحدث المعجزات التي تخفف من الآلام البشرية أو أنها قد تمنع ظهور الآلام جديدة كانت حتما ستظهر لو لم يكتب النجاح لذلك الحب".

تلك هي آريانا كلود التي تحمل على عاتقها هم الإنسانية، وقد ورثت فيها التجربة والمعاشية المستمرة لمآسي البشر وما يتعرض له الكثيرون في هذا العالم ومن مختلف الأعراق والأجناس الحزن العميق، بل لقد عتقته المآسي حتى صار مقدساً ولا يختلف في جوهره عن هذا الحزن الذي يعتري هذا الكون، إنه حزن الأرض وهي تدور حول نفسها أو حول الشمس، كارتماض الشمس وهي تسعى منذ الأزل إلى غاية لا تدركها، كسير الريح، وخفق الموج، وجمود التراب، وسيولة الماء، وكمون النار أو اندلاعها، حزنٌ في حزن موصول.. فلماذا وإلى أين ومتى. !؟

إنه حزن "السفسطائيين" الذين لم يجدوا في الأرض حقيقةً أو عدلاً، حزن "سقراط"، الذي عرف نفسه، وعرف ما حوله ثم ضحك في قرارة نفسه، وصبر على بؤسه وأسفه وهو يدري أنه لم يطمئن إلى شيء.

حزن "الناصرى" الذي صاح في الدهور " نفسي حزينة حتى الموت"، "إن مملكتي ليست في هذا العالم".

حزن "أبولو" الذي قتل صديقه "هاينست" عن غير عمدٍ، فأُنبِت وردةً تصف وجعهُ، وأسمأها باسمه، وكتب على أوراقها "ياللحزن... ياللحزن...!!"

حزن "أنكيديو" و"جلجامش"، حزن "هاملت"، و"فاوست"، و"شوبنهاور"، و"المعري"، و"النؤاسي"، و"الخيام"، و"ابن سينا"، و"التوحيدي"، حزن "وليم والاس" الذي صرخ في وجه العالم وحبل المشنقة حول عنقه "freedom"..

حزن "يوليوس قيصر" وأعز أصدقاءه يغرس خنجره في صدره.

حزن "جبران"، و"برتراند راسل"، حزن "كامو"، و"كافكا"، و"سارتر"، حزن "نيتشه"، و"وليم بليك"، و"هيدجر"، و"كيركجورد".

إنه حزن القلوب المفجوعة بحياةٍ تافهةٍ لا تستحق حتى الموت.

إن ما تؤمن به هذه المرأة وتراه واجبها المقدس، ومهمتها العظيمة في هذه الحياة، يمكنه أن يحكي حكايتها وتفصيل مهمتها بطريقة سهلة لا تعقيد فيها، إذ لا فرق يمكن ملاحظته بينها وبين التكاليفات التي يبعث بها المختارين من القوى العليا في هذا الكون، فما تقوم به يمكن رؤيته على هذا النحو:

"سيدة محنكة وشديدة البأس تجلس على متن قارب، تمسك بقوة بمجدأفيه، وتجتهد بين حين وآخر في نقل الآخرين من ضفة النهر إلى الضفة الأخرى، وتفيد تعاليم وتوجيهات التكليف أن مهمة هذه السيدة ستنتهي حين تقوم بإيصال آخر شخص إلى

ضفة النجاة الأخرى، لولا أن أريانا كلود لا تعلم شيئاً عن ذلك الشخص الأخير، ولا تستطيع أن تجزم في أي مرة أن ذلك الشخص الذي توصله هو آخر شخص قد يكون في مهمتها، وهذا يجعلها تجهل تماماً متى ستنتهي مهمتها، ولذلك فهي تعتقد أنها لن تغادر القارب حتى الأبد!

الكبسولة

سافر الرجل من وطنه هاربا بعد أن وجد أخيرا من يساعده في الهروب والانتقال إلى مدينة أخرى تمهيدا لانتقاله لمكان ثالث لا يعرف عنه شيئا ولكنه مضطر للصمود تسعة أشهر أخرى بعد عام سبقها في هذه المدينة التي تشبه البرزخ.

وسط زخم الرأسمالية، الذي تعج به هذه المدينة، والتي لا تجيد شيئا سوى أن تضع الناس تحت فكيها وتطحنهم بلا رحمة، لم يترك بابا يعرفه إلا وطرقه ولم يترك صديقا إلا واستدان منه، وفي آخر أسبوعين يملك مصروفهما يتخذ قراره.

إنه يقدر الحياة جداً ويقدر جسده وروحه وعقله، وعقله ضخم ومد هش ويؤمن أنه فقط يستطيع إنقاذه بدون أن يلجأ إلى الموت، لم يفكر في الانتحار اطلاقاً.

بدأ الرجل ذو الثلاثينات في البحث عن مكونات الكبسولة.

الكبسولة التي سيزدردها وتميته تسعة أشهر حتى موعد انتقاله إلى المكان الثالث بدون ان يتخلى عن كرامته في هذا المجتمع الرأسمالي.

خلال أسبوعين كان قد اهتدى إلى كل مكونات الكبسولة ويصنعها، ماهي محتويات الكبسولة؟

إنها تحتوي ما يحتاجه الجسم من غذاء لمدة تسعة أشهر بلا مضاعفات، و بلا حاجة للاستيقاظ.

ثم تبدأ رحلة أخرى للبحث عن مكان مثالي يستطيع أن يخد فيه لتسعة أشهر بدون أن يدفع إيجارا أو أي متطلبات لا يملكها أصلا.

لا يجد في هذه المدينة الكبيرة مكاناً واحداً لا يصل إليه أحد خلال تسعة أشهر، انها مدينة بنيت في الصحراء ولا يوجد حتى جبال او كهوف فيها.

لقد فكر وقدر ثم اهتدى إلى اللجوء إلى القمة!؟

صعد الرجل البرج العظيم وتسلل إلى سطحه ثم أخذ يبني له على قمة البرج تابوتا من الكراتين ارتفاعه 50 سنتيمترا وطوله مترا وسبعون سنتيمترا وعرضه سبعون سنتيمترا وفي تلك القمة لا يمكن ان يلحظه أحد إلا الله. كان متأكدا من ذلك فالناس لا يحبون القمم ولا يتوقون إلى الوصول إليها ولو أنه ظل تسعين عاما هناك عوضا عن تسعة أشهر فلن يصل إليه أحد.

يزردد الكبسولة وتأخذ قصته مسارا آخر حيث كان عليه أن يعيش في أحلامه تسعة أشهر بكاملها. ماذا رأى في المنام؟

لقد عشق امرأة جميلة وتزوجها وأنجب منها طفلين، وبنى بيته وعمل فيما كان يحلم به وحقق كل أحلامه، وزار جنة غفران المعري، وزار جحيم دانتي، وسامر الرشيد، وصادق كل شعراء التاريخ وصعاليكه، وزار الخمسين كونا الموازية التي تنبأت بها نظرية النسبية لإينشتاين، واكتشف الثقوب الدودية، وشارك في الثورة الفرنسية، وشارك في دك سجون الباستيل

وتحطيم اقفالها وكسر حديدها، وشارك في الحروب التي خاضها الأنبياء، وخاض حربا شرسة مع هرقل العظيم.

وعندما استيقظ بعد تسعة أشهر وجد له لحية بيضاء قد وصلت إلى منتصف صدره فأدرك انه قد صار حكيما.

لقد عاش حياة كاملة في تسعة أشهر. علمته الاحلام كل شيء. هل ينام الإنسان في احلامه...؟ ربما لكنه لم ينم لحظة واحدة.

ثم باشر وفتح هاتفه المقفل وكم كان مؤلما ألا يجد أحدا قد اتصل ليسأل عنه سوى قائمة طويلة من الأرقام والرسائل لأولئك الذين استدان منهم المال طيلة الفترات الماضية.

في ايميله وجد رسالة تفيده بأنه قد تمت الموافقة على طلبه كما وجد صورة الفيزا وتذاكر السفر، واشعار من شركة الصرافة بمبلغ لا بأس به من المال... يكفيه مؤونة كل شيء.

لكن ذلك لم يعني له الكثير لأنه اكتشف الكبسولة ويستطيع ان يعيد التجربة مرة أخرى كلما استبدت به الحياة الرأسمالية. وكلما اشتاق إلى زوجته واطفاله.

جمال الدين الغولي

في أيام الحرب شاعت ظاهرة الهجرة بين الشباب بشكل شجع كل أبناء الوطن على الهجرة منهم من يعرف إلى أين سيذهب و منهم من لا يعرف.. لكن الجميع يلتقون في شيء واحد ويتفقون فيه وهو الحلم بفرصة أفضل وعوالم أرحب.

عندما سمع جمال الدين الغولي بشأن هجرة الشباب التي أصبحت أكثر شيوعاً من البواسير قرر هو أيضاً السفر.

جمال الدين الغولي شاب في مقتبل العمر أكمل دراسته الجامعية متخصصاً في علوم الرياضيات، متدين جداً، رغم أنه لا يحتاج إلى أن يكون كذلك فالبيئة التي نشأ فيها بها من العادات والتقاليد ما هو أشد صرامةً و قيوداً مما قد يفرضه التدين على المرء، يعمل جمال الدين الغولي في زراعة القات وبيعه، يعيش مع أسرته في إحدى قرى اليمن الشمالية، وقد قرر - تلبية لدواعي ظاهرة الهجرة التي اجتاحت كل أوساط الشباب خصوصاً في زمن الحرب- أن يسافر واتخذ موضوع استكمال دراسته العليا عذراً لذلك السفر الذي نوى عليه على الأقل أمام الآخرين.

جهز جمال الدين الغولي نفسه جيداً ورتب كل شيء يتعلق بالسفر خلال أيام قليلة، ثم ودع أهله ومضى.

وصل جمال الدين الغولي إلى الخرطوم يرتدي ثوباً بنياً قصيراً وعلى رأسه كوفية بيضاء وله لحية لم تخلق من قبل مطلقاً،

لكنها ليست طويلة أو كثيفة ولا يخطئ من يراه لأول وهلة أنه متدين وينتمي إلى جماعة السنة.

كان جمال الدين الغولي يعرف جيداً إلى أين سيذهب، فبدلاً من الذهاب إلى البحث عن سكن ليستقر ويرتاح فيه قصد مسجداً معروفاً في الخرطوم بأنه مركز لتجمع أهل السنة ورجال الدعوة كانوا قد أخبروه عنه بعض معارفه من نفس الجماعة في مسجد قريتهم قبل سفره وأوصوه بزيارته.

كل ما حمله معه جمال الدين الغولي في رحلته من قريته إلى هذه المدينة هو حقيبة متوسطة الحجم بها عدد من الأثواب وبعض الملابس الداخلية بالإضافة إلى ملفه الأكاديمي، به وثائق الإلتحاق بالدراسة، ومحفظة بها رزمة من العملة الصعبة جمعها من هنا وهناك لتغطي احتياجات الدراسة والإقامة والإعاشة لعدد من الأشهر، وأيضاً هاتف بسيط جداً وبدائي لا يمكنه فعل شيء سوى حفظ الأرقام والإتصال وإرسال واستقبال الرسائل القصيرة فقط.

هناك في ذلك الجامع الذي حط رحاله فيه، تعرف جمال الدين الغولي على بعض الأشخاص الذين وجهوا له دعوة بالخروج معهم في سبيل الله لمدة عشرة أيام. وأخبروه فيما أخبروه بأن برنامج خروجهم ذاك سيكون في نفس ذلك اليوم، أي بعد لقاءه بهم بساعات فقط و لا حاجة له بالذهاب إلى أي مكان أو استئجار سكن.

فكر جمال الدين الغولي في الاستجابة لتلك الدعوة وقال لن يضرني أن أخرج في سبيل الله لعشرة أيام قبل أن أبدأ إجراءات الإلتحاق بالدراسة والتسجيل فلربما بهذا العمل يذل الله لي كل

الصعوبات وتفتح لي كل الأبواب المغلقة وتهيئ لي من الأسباب ما يكفي للنجاح والسداد.

في أول جامع انتقل إليه جمال الدين الغولي مع تلك الجماعة التي خرج في سبيل الله لعشرة أيام معها، تقرر عليه، أسوة بهم، أولاً بمجرد وصولهم إلى ذلك الجامع، أن يضع حقيبته في غرفة ملحقة بالجامع، كما كان قد تقرر عليه قبل ذلك أن يدفع ما قررته عليه الجماعة من نقود بعد حساب اجمالي ما سيصرفونه على المأكل والمشرب طيلة عشرة أيام، وحين أعاد محفظته إلى حقيبته وضع جوازه أيضاً إلى جوارها ولم يبق بجيبه شيء اعتقاداً شائعاً بأن ثقل الجيوب قد يشغل عن الصلاة، لكنه ترك بعض الجنيئات القليلة جداً لعل ثمة من ينتظر الصدقة على أبواب المسجد.

كانت الساعة حينها تشير إلى الرابعة عصراً، وبعد مضي ثلاث ساعات قضاها جمال الدين الغولي في الحديث مع أفراد تلك الجماعة، يتعرف عليهم و يتعرفون عليه يسألهم ويسألونه، تذكر جمال الدين الغولي لوهلة أنه لم يغير ثوبه منذ خروجه من منزلهم في القرية وطيلة رحلته الشاقة و حتى تلك اللحظة، ورأى أن عليه أن يذهب لتغيير ملابسه ويستحم أيضاً في حمامات المسجد.

وذهب جمال الدين الغولي إلى الغرفة الملحقة بالمسجد، حيث وضع حقيبته لي جلب ثوباً آخر، لكنه حين دخل تلك الغرفة لم يفكر إطلاقاً في نوع المفاجأة التي كانت بانتظاره!

لم يجد جمال الدين الغولي حقيبته، أعاد البحث في الغرفة مراراً ومراراً ولكن بلا جدوى، لقد كانت فاجعة كبيرة جداً لشخص

مثله، لكن إقناع مؤمن قديم بعدم وجود الله كان أسهل بكثير في تلك اللحظة بالذات من إقناعه بأن أحدهم قد سرق حقيته من ذلك المكان بالذات الذي يعرف الجميع انه ملحقٌ ببيت الله وأن تلك الأغراض التي وضعت فيه تخص أناساً خرجوا تطوعاً في سبيل الله.

لم يكن من السهل أن يتقبل جمال الدين الغولي ذلك، ولذلك فقد اعتقد بيقين أن ما يحدث هو مجرد لعبة نفذها أصدقاؤه الجدد لينالوا بها قسطاً من المرح المباح مع صديقهم الجديد.

ذهب جمال الدين الغولي إليهم واحداً واحداً يسألهم راجياً لهم وشاكياً حاجته الملحة لتغيير ملابسه لكنهم جميعاً نفوا معرفتهم بالأمر.

جمال الدين الغولي ليس له أصدقاء غير أهله وأقاربه وأهل قريته فقط، والوسيلة الوحيدة التي يستطيع التواصل بها معهم هي ذلك الهاتف البسيط الذي كان قد وضعه في حقيته، حتى إنه لم يكن متأكداً في أي يوم أنه من الواجب عليه أن يحفظ رقم هاتف أحد أقاربه لما كان يعيشه من حياة هادئة لم تجعله تفكر في أي خطر أو مصيبة قد تحدث له في أي يوم من الأيام أو أنه لم يجد الوقت لذلك. كما أنه لا يفقه شيئاً في أمور التكنولوجيا و لم يفكر في أي يوم أن ينشئ له حساباً على أي موقع من مواقع التواصل الاجتماعي.

لقد كان عليه أن يواجه الأمر بجديّةٍ لقد تمت سرقة وفقد كل شيء، المال وجواز السفر ووثائق الالتحاق بالدراسة والهاتف.

لم يكن ثمة شخص أو مكان يعرفه جمال الدين الغولي ليذهب إليه لطلب المساعدة واضطر إلى لزوم تلك الجماعة التي خرج معها في سبيل الله.

مضت تلك الأيام العشرة المقررة في برنامج تلك الجماعة التي خرج جمال الدين الغولي معها، و لم يجد بُدّاً من الإقامة في المسجد الذي كانت البداية منه أياماً يسيرة، حتى يتم دعوته مجدداً من قبل الجماعة نفسها للخروج في سبيل الله مرة أخرى، ولكن لمدة ثلاثة أشهر هذه المرة، ولأنه لا يعرف أين يذهب أو بمن يستعين فقد وافق على الفور بعد أن احتسب أجره في مصيبتة على الله، وتكفلت تلك الجماعة بنفقة إعاشته طيلة ثلاثة أشهر تفهما لما حدث معه وآل إليه، لكن أحداً منهم لم يكلف نفسه أكثر من ذلك عوناً ومساعدةً لجمال الدين الغولي.

مضت ثلاثة أشهر ونصف وجمال الدين الغولي مع أهل الدعوة في سبيل الله يتنقل بين بيوت الله، حتى عرفته كل مساجد البلاد.

لقد كان مستلباً في أعماقه يتداعى من الداخل، وفي دواخله يسكنه نقيضان، فحياته السابقة كانت قد صنعت في أعماقه إمبراطورا والضياع الذي وصل إليه خلق في أعماقه شحاتاً فإن تصرف كإمبراطور كان ذلك الشحات يسخر و إن تصرف كشحات كان ذلك الإمبراطور ييكي.

بذات يوم وفي أحد المساجد تعرف جمال الدين الغولي على ثلاثة أشخاص من الحجاز من نفس الجماعة، و توسم فيهم الخير بعد أن حكى لهم قصته و ما حدث له، و قد قالوا له بأنهم يمكن أن يساعدونه و لكن عليه أن يتواصل معهم لاحقاً، و رغم فرحه

بذلك إلا أنه نسي أن يسألهم كيف يمكنه التواصل معهم وهو لا يملك أي وسيلة إتصال بالعالم الخارجي.

بعد رحيلهم بأيام طلب جمال الدين الغولي من هؤلاء الذين يصلون معه جماعة في كل فرض، ويعتبرهم اخوته وسنده، أن يتواصلوا مع أولئك الثلاثة الذين وعدوه بالمساعدة وتوفير جواز سفر وتذكرة ونفقات طريق العودة إلى دياره، لكن اخوته هؤلاء كانوا أشد قسوةً من اخوة يوسف حين تركوه في الجب، ماطلوه كثيراً في ذلك حتى عاد إلى الحسرة و الأسى التي كان فيها، بعد أن كان الأمل قد تسلل إلى قلبه واستبشر كثيراً بوعود أهل الحجاز.

استمر جمال الدين الغولي في إقامته بلا أمل، يستمر لمجرد الاستمرار، متنقلاً بين بيوت الله في الخرطوم حيناً، وفي القرى القريبة منها حيناً آخر، بلا أي أمل في العودة إلى منزله.

بذات ظهيرة و بعد إقامة الصلاة صادف جمال الدين الغولي في وجهه رجلا من اليمن، ويبدو أن هذا الرجل كان قد سمع بقصة جمال الدين الغولي وجاء خصيصاً ليقابله و يبحث معه عن حل لمشكلته.

جلس معه واستفسر منه عن بعض الأمور و التزم بمساعدته وإعادته إلى بيته وأطفاله واتفقا معا بأن يتم ذلك خلال ثلاثة أيام فقط.

في صباح اليوم التالي أخذ الرجل إلى السفارة اليمنية في الخرطوم، واستخرج له وثيقة عبور تفيد بأنه فقد جوازه، وتعرف به، وتمكنه من ركوب الطائرة، ثم أخذه إلى مكتب

السفريات ودفع غرامة تذكرة عودته التي كانت مهلتها ستة أشهر فقط وحدد موعداً جديداً لسفروه مع أول رحلة ذاهبة إلى اليمن، وعندما حان موعد الرحلة أعطاه ذلك الرجل مبلغ 100 ريال عماني لتغطية احتياجاته في رحلة عودته الشاقة إلى دياره قبل أن يودعه ويرحل.

بعد رحلة مضية وشاقة استمرت يوماً ونصف يوم، وصل جمال الدين الغولي إلى مطار سيئون قادماً من الخرطوم عبر مطار القاهرة، وقبل أي شيء وعلى أول عتبة لسلم الطائرة، هطلت دمعين على خديه، ولم يتمالك نفسه حين وضع أقدامه على أرض المطار من الفرحة فخر ساجداً شكراً لربه وفرحاً..

حين خرج جمال الدين الغولي من صالة الوصول لم يكن يحمل شيء سوى خيبته وقلبه الذي انفطر، وخاطره المكسور، يرتدي ذلك الثوب البني الذي ظل عليه من يوم خروجه من منزله منذ ثمانية أشهر ولم يستطع قسراً أن يغيره، وحتى تلك الكوفية البيضاء القماشية الرخيصة أيضاً التي كان يعتمرها على رأسه، وبعد هذا كله وقبل أن يستقل الباص المسافر إلى قريته في رحلة تستمر ليومين، كان جمال الدين الغولي قد وصل إلى قنطرة تامة ورضاءٍ كامل عن كل شيء يمكن أن يلاقه في وطنه، مهما كان، جعله بيقين يقسم بربه بالألا يفكر في مغادرة وطنه مرة أخرى، مهما كانت الظروف ومهما كانت الأسباب.

سليم المسيبي

سليم المسيبي ليس كأى شاب قد تقابله في حياتك، فبدءاً من ملبسه الذي ينتمي إلى النمط الغربي ثم لون بشرته الأبيض الناصع ثم لون عينيه الزرقاوين كل ذلك وأكثر يجعلك تجزم بيقين ولأول وهلة تقابل فيها سليم المسيبي أنه ليس يمينا بل وليس عربياً.

تلقى سليم المسيبي في طفولته تعليماً نوعياً فالمدارس الخاصة التي ألحقته بها أسرته الثرية جداً تعتمد اللغة الإنجليزية في مناهجها التعليمية مع اهتمام قليل باللغة العربية، وهكذا نشأ سليم المسيبي نشأة غربية لا تختلف عنها حتى هيئته.

في أيام الحرب وبعد عامين من استمرارها لم يختلف سليم المسيبي في رغبته في الهجرة عن باقي شباب وطنه فانعدام الاعمال والخدمات وصعوبة الحصول عليها حتى لمن هم ميسوري الحال يستطيعون تلبية تكاليفها الباهظة تسبب في معاناة الجميع بلا استثناء وحينها قرر سليم المسيبي السفر بعيداً جداً..

حين اتخذ سليم المسيبي قرار السفر كان يعرف أن وجهته ستكون مختلفة عما يحدده معظم الشباب والسبب أن والده رجل أعمال ثري جداً ولهذا كان بديهياً أن يتجه سليم المسيبي في سفره إلى الغرب و قد أشارت بوصلته بالفعل نحو أمريكا.

أمريكا صعبة جداً و الحصول على فيزا لدخولها بالنسبة لمواطن دولة نامية بل أقل نمواً بالإضافة إلى أنها في حالة

حرب يجعل الأمر يبدو وكأنه مستحيل فماذا فعل سليم المسيبي
كيما يحصل على فيزا!

في العادة تمنح السفارة الأمريكية المواطن اليمني الفيزا من خلال طريقتين هم الأكثر شيوعاً و سهولة الأولى من خلال فيز العمل التي يوفرها سماسرة متخصصون يقطنون أمريكا لوكلاء متخصصون ومعروفون في اليمن أي أنهم يقومون بدور الوسيط وهذه الفيزا عادة تأتي بأسماء غير أسماء من يشترونها حيث يقوم من يشتريها بتغيير اسمه واستخراج هوية جديدة وجواز جديد يتطابق مع الاسم الموجود في الفيزا التي اشتراها من السماسرة وبهذا يتمكن من السفر بعد اجراء مقابلة مع السفير أو القنصل القائم بالأعمال في السفارة.

ومن حكايات هذا النمط العجيب أن أحدهم ممن هاجروا بنفس هذا النهج وبعد عشرين عام من الاغتراب والعمل قرر أن يفتح له مؤسسة إعلامية ولم يجد بُدّاً من أن يكتب اسمين في خانة رئيس مجلس الإدارة على صفحة بيانات المؤسسة في موقعها الإلكتروني هذان الاسمان أحدهما اسمه السابق قبل عشرين عام وهو ما تعرفه قريته وعشيرته وذويه به والآخر اسمه الذي هاجر به إلى أمريكا وعرف به في الهوية والفيزا الامريكية.

ومن القصص الطريفة أيضاً حول هذه الطريقة ما حكاها لي أحد الضباط الموظفين في مصلحة الهجرة والجوازات عن أحدهم ممن قرر الهجرة إلى أمريكا بهذه الطريقة فقام بتغيير اسمه وفقاً لمعلومات زوده بها سمسار الفيزا في أمريكا وبعد أن فشل في الحصول على الفيزا لاحقاً كان عليه أن يذهب لمصلحة الجوازات والأحوال المدنية ليستخرج وثائق جديدة باسمه

السابق لكنه وجد تعنتا عظيما من ضباط الإدارة في المصلحة فأخبروه بأن عليه أن يحضر والده السابق والذي يعيش في صنعاء ووالده الآخر في أمريكا ثم يقوم والده في أمريكا بأداء القسم الديني بأن هذا الشخص ليس من نسله ويقوم والده الذي يعيش في صنعاء بأداء القسم بالمثل ليثبت أن هذا الشخص من نسله ولحمه ودمه. لكن ونظراً لهذه الصعوبة العظيمة فقد اكتفى هذا الشخص باسمه الجديد لأن والده في أمريكا وهمي ووالده اليمني قد مات منذ زمن بعيد. لقاء هذا كان لابد أن يحرم هذا الشخص من درجته الوظيفية حيث لا يتطابق اسمه الجديد مع اسمه في سجلات وزارة الخدمة المدنية وعليه أن يبدأ كفاحه في الحياة والدراسة من جديد.

و الطريقة الثانية هي الزواج بامرأة تحمل الجنسية الأمريكية وهذا النوع من الزواج في اليمن يعرفه الأغلب بأنه تجاري فمهر من تحمل الجنسية الأمريكية في اليمن يمكن أن يحصل به الرجل على اسطول كامل من النساء ذوات الجنسية اليمنية وبنفس طريقة الفيزا تتم المعاملات في السفارة الأمريكية وتتم المقابلة قبل الحصول على التأشيرة وتصريح الدخول إلى أمريكا.

وثمة طريقة لا يمكن إدراجها بين هذه الطرق الثلاث وهي طريقة المتطرفين الذي يقضون جل أعمارهم بالحديث عن أمريكا وكفر أمريكا وفسق شعبها وخطورة مخططاتها الاستعمارية على العالم وتاريخ خيانتها العظيم لدول العالم والتآمر مع اسرائيل ضد العرب ثم وحين تتغير الأحوال وتأتي الرياح التي تهدد وجودهم لا يجدون ملاذاً غير التوجه إلى

مكتب السفارة الأمريكية الكافرة لطلب اللجوء وحين يسألهم السفير عن أسباب طلب اللجوء لا يجدون أدنى حرج في القول بأنهم من الجنس الثالث الشواذ والذي تعتبر حياة صاحبه في حالة خطر مستمر نظراً لعادات وتقاليد المجتمعات العربية. وقد أخبرني أحد العاملين في القنصلية الأمريكية أن إماماً أعرفه جيداً يمثل حالة عاجزة عن الهروب من مخلفات نظام ديني يتبع حزب سابق قد تعرض للسجن والملاحقة من قبل الحوثيين فلم يجد بُدّاً من أن يخلق لحيته ويتواصل مع السفارة الأمريكية طالباً منحه اللجوء لأنهم اكتشفوا حقيقة أمره وهي انه شاذ ولكن كل محاولاته باءت بالفشل فلم يجد غير حيلة أخرى وهي الانضمام إلى صفوف الحوثيين وإعلان الولاء المطلق لهم مقابل السماح له باستمراره في مهنة الأذان وإقامة الصلاة للحصول على قوته وقوت عياله. وآخر كان من العائدين من حرب العراق حيث شارك في المعارك ضد الجيش الأمريكي اضطرته الضغوط لإن يقدم طلباً للجوء إلى أمريكا بسبب خوفه من ملاحقة الحوثيين بتهمة الانتماء إلى تنظيم القاعدة لكن طلبه قوبل بالرفض فانضم إلى صفوف الحوثيين ليضمن السلامة ويمارس حياته كجزء من الخلايا النائمة حتى يحين الوقت.

أما سليم المسيبي فقد كان وضعه مختلفاً تماماً فهو لا يفضل الطريقتين أو بالأصح سيحتاج وقتاً طويلاً جداً ليتم الأمر من خلال أحدهما، لذلك فقد اختار الطريقة الثالثة وهي طريقة رجال الأعمال وأصحاب المال.

استخرج سليم المسيبي كشف حساب بنكي باسم والده يثبت أن في رصيده ما يزيد على 200 ألف دولار وبهذا السبب استطاع أن يحصل على فيزا دراسية من السفارة الأمريكية بكل سهولة. بعد رحلة طويلة استمرت شهرين تقريباً نظراً لعدم وجود سفارة أمريكية في اليمن اضطر سليم المسيبي إلى الانتقال إلى أقرب دولة مجاورة ليتم التقديم عبر السفارة الأمريكية فيها.

سافر سليم المسيبي بحراً مع إحدى السفن من ميناء الحديد متجهاً إلى جيبوتي ليملك هناك شهرين كاملين ويعيش معاملة هي أدنى مما يعانيه السود الأفارقة مما يسمى بالمعاملة العنصرية أي أنها عنصرية أدنى من العنصرية الشائعة في عالم البيض والسبب في ذلك هو الحرب أولاً ثم وهو الأهم المعاملة الذائعة الصيت التي يتلقاها اللاجئين الأفارقة على سواحل اليمن حين يستقبلهم في معظم الأحيان سماسرة شبكات وكارتيلات تجارة الأعضاء البشرية، وكذلك المعاملة الذائعة الصيت للاجئين الأفارقة في اليمن والمولدين على حد سواء ففي معظم الأحيان لا يمكن أن تتعدى كرامة الأفريقي في المجتمع اليمني أكثر من حصوله على مهنة ماسح زجاج للسيارات أو العمل في شركات التنظيف التي تتعاقد معها الهيئات والمؤسسات والشركات الكبرى. أما المولد فخياط في معمل كبير في بدروم يتم دفنهم للعمل فيه حتى آخر رمق في حياتهم، إنهم كمن يحتمي بالبنى السفلية ساعات القصف أوقات الحروب، حتى لا يتأذى من الإشعاعات النووية التي تتوافق هنا مع منهجية التخلف في العادات والتقاليد والعنصرية والتعصب وتعاملاتها التي تنسم بها الطبقات الدنيا في معظم المجتمعات

العربية. ولطالما كانت هذه الأنواع من المعاملات مسوغات كافية لنشوء وتكوين عصابات وسماسرة في مصلحة الهجرة والجوازات والأحوال المدنية تنتكسب مبالغاً عظيمة من هؤلاء اللاجئين حين يستخرج لهم هويات تثبت انتمائهم وجنسياتهم اليمينية لإنقاذ كرامتهم من العنصرية الاجتماعية والارتقاء بمستواهم الاجتماعي للحصول على مكانة أفضل في الوظائف والمعاملة.

إزاء كل هذه المفاهيم الكامنة في أعماق معظم مكونات الطبقات الدنيا في المجتمع الأفريقي والتي تطفو على السطح مع رؤية كل وافد يماني لم يكن لسليم المسيبي أن يسلم من التحرشات التي تجاوزت ما يחדش الحياء وهو التحرش الجنسي، ولعل الدافع الأكبر بالإضافة إلى تلك المفاهيم هو وسامة سليم المسيبي وشكله الجميل جداً.

بعد شهرين من الانتظار والتردد المستمر ذهاباً وإياباً على مبنى السفارة الأمريكية في جيبوتي حصل سليم المسيبي على فيزا دخول الأراضي الأمريكية فأقلعت الطائرة به نحو مطار واشنطن في رحلة شاقة استمرت لثلاثة أيام، نظراً لعدم وجود رحلات مباشرة إلى أمريكا، فكان لا بد من ترانزيت وانتظار في مطارات شتى في أصقاع العالم.

أصدقاء سليم المسيبي في أمريكا كان قد تعرف عليهم من مواقع التواصل الاجتماعي وهم جميعاً يعرفون من خلال التواصل المستمر انه من أسرة ثرية جداً بل ويعرفون كل شيء تقريباً عن حياته لكنه كان مخدوعاً جداً حين توهم معرفتهم لأن ما حصل معه أثبت أنه لم يكن يعرف عنهم شيء.

كان لديه ثلاثة أصدقاء يقطنون في بروكلن بمدينة منهاتن بولاية نيويورك وقد سافر ثلاثتهم لاستقباله في مطار جون كنيدي بولاية واشنطن العاصمة. كما انهم أيضاً كانوا قد تكفلوا بحجز عودة إلى نيويورك وهو معهم على أول رحلة ولم تكن متأخرة سوى ساعتين فقط عن موعد وصول سليم المسيبي إلى مطار جون كنيدي.

لقد كان بينهم ظيباً وديعاً ترافقه ثلاثة ذئاب شرسة يكاد يفتك بها الجوع. فبعد أن هياؤا له مستقراً ليرتاح فيه في سكنهم وتركوه ليرتاح من وعناء رحلته ومشقتها يوماً كاملاً بدأوا في تنفيذ برنامجهم الذي خططوا جيداً لتنفيذه بمعية سليم المسيبي حتى يتم استنزافه تماماً.

في اليوم الثاني من وصول سليم المسيبي وبعد نزهة قصيرة في شوارع منهاتن أخذه فيها أصدقاؤه الجدد، للتمتع بمشاهدة أبراجها الشاهقة ووسط تلك الدهشة التي تشبه دهشة البدو في أول زيارة للمدينة، كان سليم المسيبي يتذكر، ولعله كان آخر شيء تذكره من أحاديث والده، من أن أبراج منهاتن ليست سوى نسخة إسمنتية عن منهاتن الصحراء، كما يسمونها مجازاً في بعض الأدبيات التاريخية الحديثة، "مدينة ثلا" في الغرب القريب لمدينة صنعاء، وأبراجها الطينية التي تناطح أو تعانق السحب.

كان قد تقرر بعد ذلك إقامة مراسيم الاحتفال بسليم، واحتساء نخب وصوله أمريكا. وكان ذلك الاحتفال إيذاناً بمرحلة جديدة في حياة سليم، إذ أنه بدأ في ذلك المساء مشواره في تعاطي عقاقير الماريجوانا الصناعية.

أمريكا بالنسبة لشخص في عمر سليم المسيبي لا يفقه شيئاً عن كاتلوجات الحياة الاجتماعية وتفصيلها للمجتمعات لا يمكن أن تكون بالنسبة لما يفرضه كاتلوجها الاجتماعي والاقتصادي سوى آلة مهولة لن يملك حيالها سوى الاستسلام لطحنه تحت فكها بلا رحمة.

قلة قليلة فقط من المهاجرين الغر إلى تلك البلاد قد كتب لهم النجاة من ذلك الفك القاتل الذي تشتهر به الأنظمة الرأسمالية الغربية واما معظمهم فقد تم تفتيتهم وسحقهم بطريقة الجرائم البشعة الكاملة التي ورغم معرفة العالم بها إلا أن أحداً لا يتجرأ ويقدم إفادة عنها احتكاماً لذات النظرية التي تمت الجريمة بها التي تفرض سيكولوجيتها حتى على كل من يعرف بذلك أن يتصرف في سياقاتها في الحكم فيؤكد الجميع بلا أدنى مبالاة ويقولون "القانون لا يحمي المغفلين".

إن مكونات المجتمع الأمريكي، والتي هي خليط من أقليات متعددة، تفرض أكثر من مجرد الاندهاش والإعجاب بهذا الزخم في التنوع في الأجناس والأعراق، على كل وافد إلى أمريكا، حيث تتطلب هذه التعددية أن يكون الوافد ملماً بعبادات وتقاليد وطباع معظم هذه الأقليات، ليستطيع الاندماج معها، أي أنه لا يتعامل مع مجتمع واحد بل عدة مجتمعات وشعوب في آن، ما لم فإن اندماجه معها بدون هذه المعرفة، سيكون محفوفاً بالمخاطر العظيمة التي لن يجد تجاه أبسط خطأ يقترفه معها، بقصد أو بدون قصد، عقاباً عظيماً منها، وعداءً ليس له حدود، قد يؤدي إلى الفتك به، والقضاء على مستقبل وجوده وسطها تماماً.

لم يكد يمر أسبوعان حتى كان سليم المسيبي قد بدأ مشواره في الإدمان للمخدرات، ولم تكد تمر شهران، حتى كان قد تعرف على معظم أنواع العقاقير والحشائش المخدرة، والمشروبات الروحية بكل أنواعها، بل وشرهاً جداً في تعاطيها، ونظراً لفكر المراهقة الذي يهيمن على ذهن سليم، فقد اختار، تماشياً مع الثقافة الغربية، أن ينقش ذراعاه، من أعلاهما حتى معصمه، بوشومٍ ملونةٍ، حيوانات وأشكال هندسية، جعلته في هيئته العامة كأحد أبناء أمريكا، وبلا أي شك أو اشتباه في غير ذلك. لكن كل ذلك لم يؤهله لشيء سوى أن يصبح إرهابياً.

نعم إرهابياً، ولكن ليس بالشكل المألوف والصورة السائدة عن الأشخاص الذين يعرف عنهم الإرهاب في الشرق، فطبيعة وثقافة كل مجتمع هي ما يفرض شكل الإرهاب وسياقاته وطبيعته، وإن مجتمعاً متعدداً كأمریکا لا بد أن يكون ما تفرزه مكوناته من شكل إرهابي متوافق مع ثقافة تلك الأقليات. ولو أن المجتمع الأمريكي بثقافته التي يشتهر بها قد يفرز في أي يوم شكلاً إرهابياً يتوافق مع الثقافة الشرقية وإفرازاتها فهذا مما يعتبر شذوذاً ولا يمكن اعتباره في أي أشكاله طبيعياً. فمعنى الإرهاب في أقصى حالاته لا يتعدى سوى أن كون صاحبه متطرفاً في الفكرة التي يتبناها والجريمة بكل أنواعها هي نوع من التطرف. تماماً مثلما أن المثالية المطلقة هي تطرف أيضاً. فالإنسان في أفضل حالاته ليس سوى حالة من المد والجزر وال جذب والشد بين قيم الخير والشر تظل تتنازع في كل لحظة، لكنه يدفع بنفسه دائماً باتجاه مكافحة قيم الشر والغرائز التي تسكنه وتحركه وتعبّر عن امتداد طبيعي لذلك الشر بقيم الخير التي تسكنه والتي يكتسبها بالعلم والمعرفة. وإن تطرف في أي

من ذلك أي الانجذاب إلى أي من تلك القيم فما يمثله لا يتعدى كونه فكراً "متطرفاً".

لقد كان هؤلاء الثلاثة الذين انضم إليهم سليم المسيبي جزءاً من عصابة، ليست سوى تجسيداً لحالة الإرهاب الذي تفرزه الثقافة الأمريكية ويتوافق مع مكونات بنية المجتمع التعددية وعاداتها وتقاليدها، وهذه العصابة تعمل في تجارة المخدرات وتحديداً الماريجوانا الصناعية، وبعد عام كامل قضاه سليم المسيبي معهم ينفق أمواله وفقاً لما تفرضه أمزجتهم، كان قد استنزف كل رصيده من المال الذي وضعه له والده الثري في حسابه البنكي. في عام واحد بدلاً مما كان قد افترض حجم ذلك الرصيد وهو أن يكفيه مؤونة الإقامة لخمس أعوام أي بعد بلوغه في إقامته المدة القانونية للحصول على الجنسية الأمريكية وفقاً للوائح والأنظمة.

وكان بعد ذلك يعمل ضمن هذه العصابة في توزيع المخدرات ليحصل على جرع بسيطة تخفف من معاناة إدمانه لكن أصدقائه الثلاثة بعد أن وجدوا انه لم يعد يمتلك شيئاً قرروا اغتصابه لتسديد ديونه التي استدانها مقابل جرع مخدرات، وبدأوا في التخطيط لذلك..

كان هؤلاء الشبان الثلاثة ينتمون إلى عائلة واحدة فإثنان منهم أبناء عم والثالث ابن خال لهم، وقد عاشوا قرابة خمسة عشر عاماً كعمال في محطات البنزين ومحلات التموينات الغذائية قبل أن تتحول الأسرة بكاملها وعددهم ستة عشر فرداً بما فيهم الأباء وهم أخوين والأبناء، وعددهم اثنا عشر أخاً وإثنان أبناء

خالهم، إلى العمل في تجارة المخدرات، والماريجوانا الصناعية تحديداً.

بعد أن بدأ الضباغ الثلاثة بالتخطيط للفتك بسليم المدمن لم يكونوا يعلموا أن الشرطة ترتاب في نشاطهم بداخل المدينة وأن هناك تعقب للحوالات التي يرسلونها إلى بلادهم كل أسبوع وتبحث في مصدر أموالهم، وبعد أن تأكدت الشرطة من تورط هذه الأسرة في تجارة المخدرات داهمت أوكارهم والتي كانت عبارة عن مستودع كبير "هنجر" يجهزون بداخله الطلبات ويحتفظون بالأموال داخل إطارات السيارات، وعندما أُلقت الشرطة عليهم وعددهم ثلاثة عشر فردا وبينهم الثلاثة الشبان والبقية الثلاثة هم الأب ناجي أحد الأخوة الذين يتزعمون هذه العصابة وأثنان من أبنائه وكانا قد سافرا إلى اليمن منذ قرابة شهر واحد واكتشفت تحقيقات الشرطة أن عدد الأموال التي قاموا بتحويلها في الفترة الأخيرة هي مبلغ خمسمائة ألف دولار بالإضافة إلى مبلغ آخر كانوا عازمين على تحويله وتم القبض عليهم وتحريزه بداخل تلك الإطارات وهو مائتان وخمسون ألف دولار أمريكي وتم إيداع الجميع في السجن قبل أن يتم تحويلهم إلى النيابة ثم المحكمة للحكم عليهم.

بعد عام وثمانية أشهر كان حال سليم المسيبي قد بلغ من السوء مبلغا عظيما، حيث كان، ونتيجة لتعاطي المخدرات وحالته المزرية، يقوم بارتكاب جرائم سرقة، ورغم أنه تخلص من الديون التي عليه بعد أن قبضت الشرطة على تلك الضباغ التي كادت أن تفتك به إلا أنه لم يستطع أن يتحكم في إدمان تعاطيه للمخدرات، وعندما رصدته كاميرا إحدى المحلات، أثناء قيامه

بالسرقة من أحد المحلات التجارية، بدأت أجهزة الأمن في البحث عنه، وعمت بأوصافه، ولم يجد بُدّاً حياً ذلك، من الهرب نحو أمريكا اللاتينية، إلى العاصمة الأكوادورية "كيتو"، وأقام هناك أربعة أشهر كلها كانت عذاباً وجحيماً ومعاناة، ويشاء قدره أن يقابل اشخاصاً من اليمن في تلك الأثناء رقت قلوبهم لحاله فأقاموا معه صداقة إشفافاً عليه مما هو فيه، ليعرفوا منه عناوين أسرته وقاموا تفضلاً بالتواصل معها، ليخبروا والده من ثمّ بما وصل إليه حال ابنه. ولم تكد يمر سوى بضعة ساعات فقط، حتى كان والده قد أرسل إليهم بعض المال للاهتمام به، بالإضافة إلى تذاكر سفر باتجاه القاهرة، وعند وصوله إلى هناك استقبله مجموعة من معارف والده، ثم بادروا على الفور بإيصاله إلى مستشفى متخصص في علاج الإدمان.

بعد شهرين تقرر إخراج سليم المسيبي من المصحة، بعد تحسن حالته إلى حد كبير، وشفاء دمه نسبياً وإلى حد كبير من المخدرات، ليغادر من ثم مباشرةً على متن أول طائرة نحو اليمن.

عندما حطت الطائرة رحالها في مطار سيئون كان الفتى سليم، بعد أن خرّ ساجداً على أرض المطار، وقبل أن يصعد على متن الباص المسافر نحو صنعاء، قد أقسم على نفسه بالألا يقترب من المخدرات بكل أنواعها وأشكالها مهما تهيأت لنفسه الأجواء، ومهما تزينت له الأسباب، فقد رأى ما لا يمكن لأحد رؤيته من معاناة وعذابات وجحيم وأهوال بسببها.

لقد أدرك سليم المسيبي أن الحياة لا توهب مرتين لكن ذلك ما حدث معه بالفعل وقد منحته الحياة فرصة ثانية ليحيا من جديد ويبدأ من جديد، بداية نظيفة وحياة شريفة.

عبدالله السبئي

"أن تكون لا أحد أفضل من أن تكون شخصاً ما"

هذه العبارة هي ما سيفكر به كل من يسمع بقصة عبدالله السبئي.

إنه شاب في منتصف الثلاثينات من العمر، متزوج وله طفلة لكن لخلاف حدث بين أسرته وأسرته فقد اضطر إلى أن يتخلى عن زوجته التي يحبها قرابة السنة ورغم الحب الذي بينهما إلا أن خلاف اسرتيهما كان أقوى من أن يسمح لهما بالعيش معاً.

كان عبدالله السبئي على تواصل مع زوجته وقد رأيا ألا فائدة من أمل تصالح عائلتيهما فخططا معا للهرب بعيدا وبدون أن يعرف عن ذلك اللقاء بينهما أحد، وقد استساغا فكرة الغربة والانتقال إلى بلدٍ آخر خصوصا مع ما يشاع عن هجرة الشباب في أيام الحرب، واتفقا معا على أن يسافر هو أولا إلى مصر ثم تلحق به هي مع طفليتيهما بعد أسبوع حتى يتسنى له أن يجد لهما مسكنا ويرتب لهما أمور الإقامة.

سافر عبدالله السبئي في شهر فبراير، وبعد أسبوع استقبل زوجته في المطار واستقرّا في شقة متواضعة في أحد الأحياء الشعبية الرخيصة بالقاهرة.

عمل عبدالله السبئي فيما مضى تاجر شنطة، وأمضى رداً من عمره متنقلاً بين صنعا والحبشة يحمل في حقيبته ما تيسر من

الأكسسوارات والكماليات الأخرى كخواتم الفضة العقيق والمرجان الموجودة في صنعاء بسعر زهيد أو معقول وغير موجودة في الحبشة، وحين يعود بعد بيعها يعود محملاً بما سعره زهيد في الحبشة وباهض في اليمن، وكانت سفرياته في معظمها تكمل بالنجاح والربح.

حين سافر عبدالله السبئي إلى مصر كان يفكر بالعقلية ذاتها، وهو لا يملك أي مؤهلات علمية سوى شهادة فني تكييف من المعهد المهني والتي تعادل شهادة ثانوية عامة، بالإضافة إلى خبرة لا بأس بها في العمل الحر وتجارة الشنطة المتنقلة.

لقد كان من الصعب على عبدالله السبئي أن يجد عملاً، وقد فكر بجدية في أن يتقدم بطلب العمل كفني مكيفات في القنوات الفضائية اليمنية التي تتخذ من القاهرة مقراً لها، لولا أنه لم يوفق في أن يجد أي ترحيب به لديها، فعمل صيانة المكيفات هو عمل موسمي وعدا ذلك فالطاقم في مثل هذه المؤسسات محدود ولا مجال لاستقبال أي موظفين جدد لأنها مؤسسات مستحدثة وعملها في القاهرة مؤقت فقط.

كان لعبدالله السبئي صديق يمني مقيم في أحد أحياء القاهرة الشهيرة وقد قدم إلى القاهرة لدراسة دبلوم في صناعة الأفلام كمنحة حصل عليها عبر السفارة الروسية للدراسة في المركز الثقافي الروسي، وكان عبدالله السبئي يتردد عليه ليزوره بين الفينة والأخرى.

بذات يوم وأثناء قدوم عبدالله السبئي لزيارة صديقه في ذلك الحي الذي يقع في وسط القاهرة ويشتهر بشعبيته وأهليته بالمارة والناس، حدث أن سُرقت منه محفظته، وكان بها كل أوراق

اثبات شخصيته، بالإضافة إلى بطائق عمل أخرى، ورخصة قيادة السيارة، وعدا ذلك كل ما يملكه من المال وهو مبلغ 600 دولار ومبلغ 400 جنيه مصري.

لقد إنطفت الدنيا في عيني عبدالله السبئي ساعتئذ أدخل يده في جيبه، ليجده فارغاً كقلب أم موسى، ولم يعرف ماذا يصنع سوى اللجوء إلى صديقه الذي كان مسكنه قريبا من المكان الذي سرقت فيه محفظته.

اشتكى له حاله وبكى بكاءً مريراً وكان على صديقه أن يرشده بما يجب أن يفعله. أخبره بأن يتوقف عن الشكوى والبكاء وأرشده بأن يتصرف كرجل، ونصحه بعد أن منحه مبلغ 200 جنيه ليتمكن من استقلال الباص بالذهاب إلى مركز الشرطة وتسجيل بلاغ سرقة، ويقدم إفادة كاملة بالحادثة وبما كان يملكه في محفظته التي سرقت، وبالفعل ذهب عبدالله السبئي ليسجل بلاغاً بما حصل وبعد التحقيق معه تم منحه رقماً لملفه وأخبروه بأن عليه مراجعة النيابة بعد أيام بناءً على رقم ذلك الملف.

كان على عبدالله السبئي أن يتخذ موقفاً بعد حادثة السرقة تلك وهو إما أن يحزم امتعته هو وزوجته وطفلته ويغادر القاهرة، أو يجد فيها عملاً يعيله ويكفيه مؤونة العيش هناك. لقد كان تحدياً صعباً لكن لم يجد بُدّاً من أن يخوض هذا التحدي.

في البدء حاول عبدالله السبئي أن يقنع صديقه في القدوم للعيش معه في شقته لأنه يملك مالاً وفيراً، بالإضافة إلى أنه يملك منحة مالية لدراسة الدبلوم لكن صديقه رفض العرض، لأنه يريد متنفساً وحرية وعبدالله السبئي يعيش مع زوجته، وهذا لا

ينتناسب مع طموحاته وثقافته وعاداته وتقاليده التي تربي عليها،
فعدل عبدالله السبئي عن الفكرة.

لم يجد عبدالله السبئي أمامه سوى الاستعانة بزوجه في تلك
الضائقة، وقد ساعدته بالفعل ومنحته كل ما تدخره من مال ليبدأ
في أي عمل ويغطي احتياجات البيت.

زوجة عبدالله السبئي تربت في مدينة مسقط بسلطنة عمان،
ودرست وتخرجت من كلية الطب قسم طب تجميل، لكنها لم
توفق في أن تجد عملاً مناسباً، أو أنها لم تبحث عن أي فرصة
عمل، كما أنه قد سبق لها الزواج برجال عدة ولم تنجب من أي
منهم، ثم تعرفت على عبدالله السبئي صدفة بإحدى المحلات في
صنعاء، وانتهى بهما الأمر إلى أن تزوجا، وقد أحبته وأنجبت
منه طفلة وكانت حياتهما سعيدة، لولا أن خلافاً بين أسرتيهما قد
نشب أدى إلى إقصائهما عن بعضهما البعض، ورغم ذلك فقد
أصرا على المضي قدماً والاستمرار معا فخططا للهجرة معا
سرا إلى مصر.

اتفق عبدالله السبئي وزوجه على أن يبدئا العمل في مجال
صناعة الأكل وتوزيعه للمطاعم، وقد تعرف عبدالله السبئي على
أصحاب المطاعم في الأحياء المأهولة بأفراد الجالية اليمنية في
القاهرة، وبعد أن عرض عليهم الأمر وافق البعض منهم، فاتفق
معهم على توفير بعض أصناف الأطعمة، ولكن السداد سيكون
في حالة البيع فقط، مثلما اشترطوا ذلك لقبول عرضه.

كانت زوجة عبدالله السبئي طبخة ماهرة تصنع الخبز اليمني
واللحوح بإبداع، وتصنع إلى جانب ذلك أصنافاً من الحلويات
اليمنية الشهيرة كـ"الرواني" و"الكعك اليمني" بالإضافة إلى

أصناف أخرى ليست يمنية كـ"البسبوسة" وغير ذلك، وكانوا يضعونها في أطباق بلاستيكية صغيرة ويقومون بتغليفها بغطاء حراري شفاف ثم يقوم عبدالله السبئي بتوزيعها على المطاعم، وما تم بيعه في المطاعم يتم دفع ثمنه للسبئي، وما لم يباع منه يرد إلى عبدالله السبئي، وعليه أن يتحمل ثمنه، حتى ولو كان منتهي الصلاحية تالفاً.

كان عبدالله السبئي يربح يوماً ويخسر ثلاثة أيام، حيث كان يعود له الكثير من الأصناف التي يضعها في المطاعم نظراً لعدم بيعها، وكان ثمنها يحسب عليه، وكان عليه أن يتقبل ذلك حسب الإتفاق.

مع الأيام استطاع عبدالله السبئي ان يصنع علاقات جيدة مع تلك الثلة التي يتعامل معها، وقد دعاه أحد أصحاب المطاعم للعمل معه محاسباً في المطعم، بالإضافة إلى عمله في توفير احتياجات المطعم من أصناف المأكولات اليمنية التي كانت زوجته تعدها في المنزل بكميات تناسب حاجة المطعم وطلبات الزبائن.

بعد ذلك تحسنت كثيراً أحوال عبدالله السبئي لكن الحال السعيد ذاك لم يدم طويلاً فقد اختلف عبدالله السبئي وأصحاب المطعم واضطر إلى ترك العمل لديهم، كما توقف عن توفير طلبات المطعم التي كانت زوجته تقوم بإعدادها في البيت.

كان الخلاف الذي حصل سببه وشاية من أحد العمال اليمنيين لمالك المطعم بأن عبدالله السبئي يغش في الحساب، وكان السبب الآخر بالإضافة إلى هذا السبب اختلاف عبدالله السبئي مع عدد من عمال المطعم وكانوا في مجملهم من أبناء اليمن.

لقد اكتشف عبدالله السبئي أن أكبر عدو له في غربته هم أبناء جاليته، لكنه لم ييأس، وكانت زوجته قد وجدت طريقاً آخر يساعدهما في تدبير أمور المعيشة وتغطية نفقاتهما وكان ذلك الطريق هو العمل ضمن مجال تخصصها الدراسي وهو تجميل العرائس وكانت خلال فترة إقامتها في القاهرة قد صنعت علاقات جيدة مع عوائل وأسر كثيرة بعضها تعيش في أمريكا وتأتي إلى القاهرة لتمضية أيام إجازة الصيف وأحياناً تقوم بتزويج بناتها في القاهرة في تلك الفترة.

كان هذا العمل مربحاً أكثر من أي عمل آخر عمل به عبدالله السبئي وزوجته فيه، بالإضافة إلى أنه مريح أيضاً، ويستغرق القليل من الوقت، كما أنه ليس بشكل يومي بل بشكل أسبوعي فقط، وهذا كان يريحهما من التعب اليومي الذي تعودا عليه أثناء عملهما مع المطاعم.

رغم ذلك فقد كان هذا العمل يتوقف أحياناً كلياً لمدة شهر وأكثر فيضطر عبدالله السبئي وزوجته لإنفاق كل ما يدخرانه من الأيام السابقة لتسديد الإيجار وتسديد نفقات المأكل والمشرب والملبس.

لقد فكر عبدالله السبئي بعد مضي ستة أشهر بشكل جاد في العودة إلى الوطن لكنه كان يتذكر الخلاف بين أسرته وأسرته زوجته فتعلق في وجهه كل الأبواب ويفقد الأمل في أنه سيستطيع أن يعيش مع زوجته مثلما يعيشان في القاهرة، فأمه التي لا يستطيع أن يخالف كلامها كانت قد أقسمت ألا تدخل زوجته البيت ووالده أقسم ألا يعيش معها ابنه عبدالله السبئي معها تحت سقف بيت واحد ما دام على قيد الحياة وإن كان ولا بُد فعليه أن يختار حينها إما أهله وإما زوجته وأسرته.

كان يحلم بأن تتحسن ظروفه فقط في هذه البلاد التي قدم إليها وصارت رأسماليها كابوساً يقض مضجعه ويحرمه السلام والطمأنينة، فإن عاد إلى وطنه عاد وهو يملك ما يجعله متمكناً من استئجار منزل بسيط ويعيش فيه مع زوجته ولو سراً عن أهله، لولا أن ذلك بدا محالاً كما أثبتت الأيام.

فيزة الإقامة في القاهرة مدتها الافتراضية بالنسبة ليمني دخل إليها من خلال تقرير طبي هي ستة أشهر بعدها يلزمه تجديدها ودفع رسوم تجديد ونفس المدة بالنسبة لشركة الطيران مقررة يلزم تجديد حجز الإياب وإلا فسوف يتم احتساب غرامة على صاحب تذكرة السفر، وهنا وقبل أن يحدث هذا قررت زوجة عبدالله السبئي العودة إلى اليمن بحجة أنها لا تفعل شيئاً في القاهرة وليس ثمة شيء يتطلب منها أن تبقى لتنتظره أو تقضي أيامها في مصر لأجله، والأهم من ذلك أنها اشتاقت لوالدتها واخوتها كثيراً ولا بد أن تعود، وكان لابد من صراع على هذا الأمر بين عبدالله السبئي وزوجته وعندما أصاب اليأس قلب عبدالله السبئي من اللاجدوى في المحاولة في إقناعها بأن الوضع سيتحسن تقبل عبدالله السبئي الأمر وأقسم أن يعاقبها على هذا الخذلان الذي تفعله به.

سافرت زوجة عبدالله السبئي وطفلتها قبل انتهاء تأشيرة إقامتها بأيام قليلة وهنا كان عليه أن يواجه العواصف العاتية والظروف القاسية بمجداف واحد.

كل يوم كان يمر عليه كان الوضع يتفاقم سوءاً ويزداد في رعبه، ديون كثيرة تزداد كل يوم ولا مصدر دخل يغطي ولو حتى نسبة قليلة منها.

بذات صباح اتصل به أحد معارفه اليمنيين في القاهرة واتفق معه على اللقاء للذهاب برفقة وافد حديث الزيارة لمتابعة علاجه في مستشفى القصر العيني وبعد ذهابهما اكتشفا أن المريض الذي يرافقانه يحتاج بأسرع وقت ممكن إلى متبرع بكلية فهو مصاب بفشل كلوي وحياته مهددة بالتوقف في أية لحظة.

كان المريض يملك مالا كافيا لشراء كلية أي متبرع لكن بشرط أن يتم الأمر بسرعة وقد طلب من عبدالله السبئي مساعدته وقال سأدفع حتى عشرة آلاف دولار لا يهم المهم هو أن تجد من يتبرع لي بأسرع وقت ممكن. فكر عبدالله السبئي بتلك الليلة في الأمر ملياً وفكر في حجم المبلغ الذي يمكن أن يتفاوض على زيادته مقابل لو أنه تبرع بإحدى كليتيه، وبعد ليلة من التفكير والحساب قرر أن يفعلها.

في صباح اليوم التالي اتصل عبدالله السبئي بصديقه المريض وأخبره أنه موافق على أن يتبرع له بكليته ولكن مقابل خمسة عشر ألف دولار أمريكي فتحجج المريض بأنه لو دفع له هذا المبلغ فسوف ينقص المبلغ المطلوب لإجراء عملية الزراعة للكلية وسوف يضطر إلى البحث عن مصدر لتوفير النقص وبعد تفاوض قال المريض انظر لا بأس سوف أدفع لك اثنا عشر ألف دولار أمريكي واحتسب أجرك عند الله على صنيعك معي فأصيب عبدالله السبئي بنوع من الإحراج ولم يجد إلا الموافقة على المبلغ.

أجريت العملية لعبدالله السبئي وأجريت عملية الزراعة للرجل ونجحت وبعد أن تعافى عبدالله السبئي قليلاً قرر العودة فوراً ليلحق بزوجته إلى موطنه وقبل أن يقصد مكتب شركة الطيران

لتحديد موعد السفر قام بتسديد كل ديونه واستخرج جواز سفره الذي رهنه مقابل بعض المال لتغطية احتياجات المأكل والمشرب.

لقد عاد إلى وطنه بكلية واحدة فقط، لقد جعله ذلك يقسم بمجرد أن وطأت قدمه أرض وطنه أن يهاب أمر التفكير في مغادرته مرة أخرى وكلما عن له أن يفكر في ذلك فما عليه سوى أن يتحسس مكان كليته التي فقدتها عندما غادره ذات يوم.

بعد أن أصغيت إلى جميع حكايات من كانوا على متن الباص، تذكرت أنني سأرى أمي فابتهجت وفرحت وسالت الدموع على وجنتي، حينها كنت قد صدقت واقتنعت تماما "أن العالم ليس كأمي أغضب وأصرخ في وجهها في النهار لتدعوني في نهاية اليوم لتناول العشاء، أما العالم فسيتركني أموت جوعا....".

كنت أبكي، وفجأة حين أصبحنا على مشارف صنعاء بادر سائق الباص بتشغيل أغنية لأبو بكر سالم تقول "يا مروح بلادك ليل والشمس غابت.. فلم يتحمل جميع الركاب سحر هذه الأغنية التي تعبر عن طموحاتهم وشوقهم فراح الجميع يرددون الأغنية وبعضهم لم يكتف بذلك بل تفاعل معها بالتصفيق الحار.... وحتى آخر محطة..

انتهت.

مهاجرون بلا منأى

رواية من زمن الحرب

تأليف:
هايل علي المذابي

